مختصر
قصة الحياة
عبدالإله بن عبدالله السعيدي

النسخة الإلكترونية

(قصة الحياة)

و

(مختصر قصة الحياة)

عبر الرمز الإلكتروني:

مختصر

قصة الحياة

جمع وإعداد
عبدالإله بن عبدالله السعيدي

الحقوق متاحة لكل مسلم

١٤٤٣هـ

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

فهذه الرواية الصادقة ليست من نسج الخيال، وإنما غالب فصولها وأحداثها من أخبار الوحي، ورواية ثقات المؤرخين في خلاصة غنية جدًا من الأحداث والأحاديث الصحيحة والحسنة - إن شاء الله- التي هي نواة العلم الحقيقي وتاريخ الكون والبشر.

بعيدًا عن خرافات العصر الحجري وما يسمى بعصر ما قبل التاريخ، ونظريات النشوء والارتقاء التي تزعم تحول الإنسان من قرد، ونظرية الانفجار العظيم وغيرها من الفلسفات والتخيلات الباطلة المليئة بالمتناقضات والظنون التي لا تغني من الحق شيئًا.

بعيدًا عن ذلك كله؛ هناك مصدر للحق الذي يوافقه العقل السليم والفطرة السوية فتخبت له القلوب وتطمئن إليه النفوس. إنه نور الوحي السماوي الذي أوحاه رب الكون وجعله نورًا وهدىً

للناس، فيه ذكر أصل الكون وتاريخه السابق واللاحق، وما كان وما سيكون، وفيه (قصة الحياة).

من خلق هذا الكون؟ وكيف بدأ؟ وما قصة أول إنسان؟ وهل كان عالمًا أم جاهلاً؟ وما علاقته بالسماء وبالأرض وبتلك المخلوقات التي تغيب عن الأعين؟ ولماذا نحن على الأرض؟ وما قصة الأجيال التي عاشت قبلنا؟ والتي ستأتي بعدنا؟ وما الدين الحق؟ وما قصة الرسائل السماوية التي بُعث بها الأنبياء من رب العالمين؟ وكيف ستكون نهاية الحياة؟ وما مصير الكون؟.

ما أجمل أن تجد من الوحي إجابات صادقة وإرشادًا وهديًا ربّانيًا لكل تلك التساؤلات! وقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم -: "مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ومَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي".

ولا عجب أن يقول أبو ذر - رضي الله عنه: "تَرَكَنَا رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا".

ولما تفرقت تلك الروايات التي تحكي قصة الوجود والغاية من الخلق ونظام الحياة ونهاية الدنيا وتشعبت في الكتب؛ حرصت أن أجمع منها خلاصة غنية موجزة في سياق قصة تجمع أصول العلم الثابت وجوامع الحديث الصحيح وأهم أحداث التاريخ، لتحكي بنسق مترابط أبرز وأهم أحداث قصة الوجود والخلق والطريق في هذه الحياة وما فيه من تدافع الحق والباطل وأبرز أخبار الأمم وما سيكون إلى حياة الخلود.

ثم كان ترتيب هذه الروايات لتحكي قصة الحياة من بدء الخلق وصفة الخالق جل وعلا، وذكر خلق السموات والأرض وخلق أول البشر وما كان من عداوة الشيطان له، وهبوط آدم وإبليس إلى الأرض، وإرسال الرسل وقصصهم مع أقوامهم، وجمع ما صح من أحاديث قصص الأنبياء وما صح عن الصحابة في ذلك، ثم انتقاء الأظهر من روايات حفاظ المؤرخين وترجيحاتهم في الأحداث

التاريخية المشتهرة التي لم ترد بأسانيد متصلة، وشمل ذلك ملخصًا لأهم أحداث السيرة النبوية الشريفة، ثم ملخصًا موضوعيًا من جوامع الكلم النبوي، وذكر أشراط الساعة، وأحداث يوم القيامة، وبها تكتمل أهم أحداث (قصة الحياة) من الوجود إلى الخلود، ولما نشرت القصة طلب بعض الفضلاء اختصارها.

فهذا المختصر يعطي خلاصة طيبة ولا يغني عن أصل القصة، أعني كتاب (قصة الحياة) الذي اختصرته في هذا الكتاب وسميته (مختصر قصة الحياة) تيسيرًا لمن قصرت همته عن قراءة الأصل الذي ازدان بزيادات وتفاصيل وأحاديث جامعة مجموعة الأطراف، وبحواشٍ مليئة بالتوضيحات والفوائد والفرائد والملخصات من مهمات ما بينه أهل العلم -رحمهم الله- في جملة من الموضوعات؛ كذكر النجوم والأبراج والغاية من وجودها، وهيئة السموات والأرض والأفلاك، وحساب الزمان والسنين والفصول والمواسم والتأريخ الصحيح، ووقوع التحريف في دين اليهود والنصارى وكتبهم، وحال الناس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وإعجاز القرآن الكريم وجمعه، وتفرق الأمة، ونشوء علم الرجال وحفظ السُّنة بالإسناد، وتوضيحات

مهمة في مسائل الرق في الإسلام، والحجاب والعفة وحفظ العرض والنسل، وفوائد في حفظ الصحة والتداوي والاسترقاء، وحال الصحابة في معالجة الفتنة التي وقعت بين المسلمين في آخر زمن الخلفاء الراشدين، وذكر تداعي الأمم الكافرة على المسلمين، وفضل مجتمعات المسلمين على غيرهم، ومسائل في أشراط الساعة وتفاصيل في ذكر الدجال وابن صياد، وخروج يأجوج ومأجوج، وغير ذلك من الإثراءات. وجُلُّ ما في (قصة الحياة) ومختصره؛ إنما هو مجموع منتقى من كتب ومصادر عدة، تحريت الصواب في نقله وترتيبه وجمعه واختصاره، باجتهاد قاصر، ليكون ميسرًا يحوي خلاصة ماتعة نافعة، تسهل فهم كثير مما جاء في القرآن والسنة إن شاء الله، ولا أنسبه لنفسي ولا أدعيه، وإنما كان كناشًا خاصًا للمذاكرة وترتيب الفوائد والملخصات وتعليم أولادي، ولذا لم أراعي فيه العزو والإحالات وتفصيل الخلاف ونسبة الأقوال والنقولات لأصحابها وهم أهل الفضل، وقد تم الإشارة إلى ذلك في مقدمة أصل القصة، فجزى الله خيرًا من نقلت من كتبهم وأبحاثهم ومواقعهم ولم أشر إليهم، وبارك في علمهم وعملهم.

وأسأله سبحانه المغفرة والقبول وأن ينفع بما جُمع وكُتب، وأن يوفقنا جميعًا لكل خير ويعفو عن الخطأ والزلل ويرحمنا برحتمه الواسعة، إنه غفور رحيم.

عبدالإله بن عبدالله السعيدي

٢٧ صفر ١٤٤٣هـ

مختصر
قصة الحياة

الله جل وعلا

كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَلا قَبْلُهُ، هُوَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، والْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، والظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَالْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، هُوَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، ولَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا، ولَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً.

بدء الخلق

وكان عرش الله على الماء، وأوّلَ ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة (إلى الأبد)، كتب مقادير الخلائق (القدر)، وكتب في الذِّكْر (اللوح المحفوظ) كل شيء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.[1]

---

[1] والله فوق عرشه، وعرش الله هو أعلى ما نعلمه من المخلوقات، وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم وله قوائم، وتحته الماء، والكرسي أمام العرش كالمقدمة له أو تحته كالمرقاة له، والمرقاة: هو ما يُرقى عليه، وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة، والكرسي محيط بالسموات والأرض وهن بالنسبة إليه كحلقة في فلاة، والعالم العلوي والسفلي بما فيه العرش وغيره هو بالنسبة إلى الخالق جل وعلا في غاية الصغر.

السماوات والأرض

وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ[٢] وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ[٣].

---

[٢] بيّن أهل العلم أن السماء على شكل كرة، والسماوات السبع بعضها على بعض كقشور البصلة، والأرض كرة في المركز الوسط، تحيط بها السماء الدنيا من كل جانب، والأفلاك هي مدارات الشمس والقمر والنجوم والكواكب السيارة، وهي واقعة بين السماء الدنيا المبنية والأرض، ولا يسمى ما فوق الأرض فضاء، وإنما السماء، والمسافة بين الأرض والسماء الدنيا -التي هي بناء محكم له أبواب- مسافة عظيمة لم يبلغها البشر وهي مسيرة خمسمائة عام. وإضافة إلى ظواهر النصوص الشرعية والكتب المنزلة وإجماع المسلمين في القرون المفضلة فإن الحس والمشاهدة يدلان على ثبات الأرض في مكانها، وإنّ عدم رصد الانحراف النجمي هو من أقوى الأدلة الحسية على ثبات مكان الأرض في الوسط والمركز؛ لأن زعم حركة الأرض وأنها تدور حول الشمس في مدار قطره المتوسط ٥٦ مليون كيلومتر لابد أن يؤثر على مواقع النجوم ومقدار بعدها عن الأرض في السماء على الأقل ما بين الصيف و الشتاء عندما تكون الأرض على طرفي المدار، هو دليل نفي قاطع لدوران الأرض حول الشمس، الذي يزعمه بعض من تأثر بالاعتقادات التي تقدس النار والحرارة والشمس وترغب في جعل الشمس مركزاً للكون.

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَوْمَ السَّابِعِ[٤].

كما أن الأرض على شكل كرة وليست مسطحة؛ فإن ثبات مسافات رؤية النجوم من أنحاء الأرض المختلفة يدل على كريّة الأرض، ومما يدل أيضاً على كريّة الأرض أن ظِلُّ الْأَرْضِ يظهر مُسْتَدِيراً في انْخِسَافِ الْقَمَرِ، وكذلك أن الأرض لو كانت منبسطة؛ لَصَارَ جَمِيعُ وَجْهِ الْأَرْضِ مُضِيئًا دُفْعَةً وَاحِدَةً عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَصَارَ جَمِيعُهُ مُظْلِمًا دُفْعَةً وَاحِدَةً عِنْدَ غَيْبَتِهَا. والشمس والقمر والليل -وهو ظل الأرض- والنهار كلهم يسبحون في مسارات دائرية (أفلاك) حول الأرض.

[٣] روي عن ابن عباس أن "اليوم بألف سنة"، وجمهور العلماء أنها كأيامنا.

[٤] أول الأيام السبت كما في حديث التربة، وآخرها الجمعة وهو سابعها وخيرها، وفيه خلق آدم، وجعله الله عيداً لنا، وقد ضل عنه اليهود والنصارى فظنوا أول الأيام الأحد وسابعها السبت، وزعمت اليهود -قبحهم الله- أن الله استراح يوم السبت، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

خلق الملائكة والجن والإنس

وَخَلَقَ المَلائِكَةَ مِنْ نُورٍ، وَخَلَقَ الجِنَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارِ السَّمُومِ، وَخَلَقَ آدَمَ - عليه السلام - مِنْ طِينٍ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ.

النجوم والبروج وحساب الزمان

وَجَعَلَ اللهُ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِيَعْلَمَ النَّاسُ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، وَجَعَلَ السَّنَةَ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا قَمَرِيًّا[٥]، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، وجَعَلَ النُّجُومَ زِينَةً لِلسَّمَاءِ الدنيا، وَأَمَنَةٌ لَهَا، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، وَجَعَلَ فِي السَّمَاءِ

---

[٥] وبالأشهر القمرية يكون الحساب الصحيح والعبادة، وما عداها يدخله الخلل والاضطراب والتعديل.

بُرُوجًا[٦]، وَجَعَلَ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْأَظِلَّةَ لِذِكْرِ اللَّهِ.

رحمة الله

ولَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ؛ كَتَبَ كِتَابًا عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: "إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي"، وحَرَّمَ الظُّلْمَ عَلى نَفْسِهِ، فَعِبَادُهُ بَيْنَ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

خلق آدم

وخلق اللهُ - عز وجل - آدمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ تُرَابٍ، فَجَعَلَهُ طِينًا لازِبًا، وتَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمَأً مَسْنُونًا خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ في الجنة،

---

[٦] **البروج هي: مجموعة أو تشكيلات متقاربة من النجوم الظاهرة، ويشاهد في السماء اثنا عشر برجاً وهي علامات نافعة وتوقيتات منتظمة للمواسم والفصول والطقس تفيد أهل الزراعة والصيد والسفر وغيرهم، لكن بعض الناس اعتقدوا فيها الدجل والخرافة والشعوذة.**

وتركه ما شاء الله أن يتركه، فكَانَ صَلْصَالاً كَالْفَخَّارِ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِ مِائَةِ مَفْصِلٍ، طوله سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ، فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ عَرْضًا، ونفخ اللهُ فيه الروحَ، وَعَلَّمَهُ أسماء الأشياء كلها من الحيوان والجماد؛ ألفاظها ومعانيها.

سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس

وأُمِر الملائكةُ بالسجود لآدم سجود تقدير واحترام، فسجدوا، إلا إبليس الَّذي كان من الجن؛ فإنه امتنع اعتراضًا على أمر الله له بالسجود وتكَبُّرًا على آدم، فلعنه الله وطرده من جنته.

خلق حواء وإسكانها الجنة مع آدم

وخلق الله حواء من ضلع آدم ليأنس إليها، وجعل بينهما مودة ورحمة، وأسكنها الله الجنة مع زوجها آدم. ومتعهما بالطيبات والنعيم، ونهاهما أن يأكلا من شجرة عَيَّنها الله لهما، وحذهما من عدوهما إبليس.

إغواء الشيطان لآدم وزوجه

فوسوس إبليسُ لآدم وزوجه ليُظْهِر لهما ما سُتِر عنهما من عوراتهما، وقال لهما: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا مَلَكَين، أو تكونا من الخالدين في الجنة، وحلف لهما بالله: إني لكما -يا آدم وحواء- لمن الناصحين فيما أشرت عليكما به. فلما أكلا من الشجرة التي نُهِيا عن الأكل منها؛ ظهرت لهما عوراتهما مكشوفة، فأخذا يُلْزِقان عليهما من ورق الجنة؛ ليسترا عوراتهما. وناداهما ربهما قائلاً: ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشجرة، وأقل لكما محذرًا لكما: إن الشيطان عدو لكما ؟!

توبة آدم وحواء

وألهم الله آدم التوبة والندم، فدعا هو وزوجه بكلمات هي: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} فقبل الله توبتهما، وغفر لهما.

وجود إبليس وذنوب البشر لحكمة

والله خلق الجن والإنس لعبادته، ولم يجعلهم مجبولين على الطاعة كالملائكة، ولَو أَرَادَ اللهُ أَنْ لَا يُعْصَى؛ مَا خَلَقَ إِبْلِيسَ، وإِنَّ آدمَ لما عصى؛ ندم وتاب وطلب المغفرة والرحمة، وإبليسُ لما عصى؛ طلب أن يُمَدَّ في عمره إلى يوم القيامة، فأعطى الله كلاً منهما ما طلب. وإن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني.

هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض

وقال الله لآدم وزوجه وللشيطان: انزلوا إلى الأرض، بعضكم أعداء بعض، ولكم في الأرض حياة وتَمَتُّعٌ بما فيها من خيرات إلى أن تنتهي آجالكم فتموتون، حتى تقوم الساعة يوم القيامة فتخرجون من الأرض وتبعثون.

ومَا سَكَنَ آدَمُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ زَوَّدَهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ كُلِّ شَيْءٍ.

وعُرِضَتْ الْأَمَانَة -وهي التكاليف الشرعية- عليه وقيل لآدم: أتأخذها بما فيها؟ فإن أطعتَ؛ غفرتُ، وإن عصيتَ؛ حذّرتك؟ قال: قَبِلْتُ. وأَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ (عَرَفَةَ) فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟، قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا. فكل مولود يولد حنيفاً على الفطرة، ثم منهم من تجتاله الشياطين ومن يغير أبواه فطرته.

ذرية آدم وتربص الشيطان بهم

وكان آدم نبيًا معلَّمًا مكلَّمًا، وكان يُعَلِّمُ ذريته. وكانت حواء إذا ولدت تلد توأمًا (ذكرًا مع أنثى)، والمشهورُ أَنَّ سَبَبَ قَتْلِ قَابِيلَ لِأَخِيهِ هَابِيلَ أَنَّ آدَمَ كَانَ يُزَوِّجُ ذَكَرَ كُلِّ بَطْنٍ مِنْ وَلَدِهِ بِأُنْثَى الْآخَرِ، وَأَنَّ أُخْتَ قَابِيلَ كَانَتْ أَحْسَنَ مِنْ أُخْتِ هَابِيلَ، فَأَرَادَ قابيل أَن

يستائر بِأُخْتِهِ، فَمَنَعَهُ آدَمُ، فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ؛ أَمَرَهُمَا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا، فَقَرَّبَ قَابِيلُ حُزْمَةً مِنْ زَرْعٍ -وَكَانَ صَاحِبَ زَرْعٍ-، وَقَرَّبَ هَابِيلُ جَذَعَةً سَمِينَةً -وَكَانَ صَاحِبَ مَوَاشٍ-، فَنَزَلَتْ نَارٌ فَأَكَلَتْ قُرْبَانَ هَابِيلَ دُونَ قَابِيلَ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الشَّرِّ بَيْنَهُمَا، فأرسل الله غرابًا يثير الأرض أمامه ليدفن فيها غرابًا ميتًا؛ ليعلّمه كيف يستر بدن أخيه. ثم رُزِقَ آدم بـ (شيث) عليهما السلام.

وفاة آدم عليه السلام

ولَمَّا نَزَلَ بِآَدَمَ الْمَوْتُ قَبَضَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَبَنُوهُ ينظرون، وغَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَاءِ وِتْرًا وهم ينظرون، وكفنوه وهم ينظرون وحنطوه وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَصَلَّوْا عَلَيْهِ، ثم حفروا له وَأَلْحَدُوا لَهُ ثم دفنوه، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ، هَذِهِ سُنَّتُكُمْ فِي مَوْتَاكُمْ، هَذِهِ سُنَّةُ آدَمَ فِي وَلَدِهِ، وَهَذا سَبِيلُكُمْ، فكذاكم فافعلوا.

الأنبياء والمرسلون بعد آدم

وأوتيَ النبوةَ بعد آدم ابنُه شيث، ثم إدريس عليهم السلام. ثم كان إرسال نوح عليه السلام إلى قومه لما ظهر فيهم الشرك بعبادة الأصنام، وكان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق.

نوح عليه السلام

وكان نُوحٌ أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وكانوا هم أهل الأرض، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا، فأعرضوا وطلبوا العذاب، وأوحي إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا على الكافرين، وصنع السفينة بأمر الله، وحمل مِن كل الدواب زوجين ذكرًا وأنثى. ثم أمطرت السماء وجاء الطوفان فأغرق أهل الأرض إلا من كان مع نوح في السفينة، وجعل نسله هو الباقي، فكل أهل الأرض اليوم من نسله.

إرسال هود عليه السلام إلى عاد

ثم بعث الله هودًا إلى عاد وهي قبيلة إِرَم بالأحقاف، يدعوهم إلى التوحيد، وكانوا أشد الناس قوة، فكذبوه واتهموه بالجنون، فحذرهم من سخط الله وعقابه، وتحداهم أن يكيدوه أو يلحقوا به الضر مع كل قوتهم لأن الله سيحفظه. فلما أصروا على تكذيبهم نجّى الله هودًا والذين آمنوا معه، وحل العذاب بقومه المكذبين، ريحًا شديدة البرد قاسية ذات صوت مزعج، مدة سبع ليالٍ وثمانية أيام تدمر كل شيء مرت عليه.

إرسال صالح عليه السلام إلى ثمود

ثم بعث الله إلى ثمود نبيه صالحًا فدعاهم إلى التوحيد وطاعة الله. فكذبوه واتهموه أنه مسحور، وطلبوا منه معجزةً تدل على صدقه، فأخرج لهم بإذن الله من الصخرة ناقةً، وأخبرهم بأمر الله لهم أن يكون ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة؛ يوم لها ويوم لهم، وأن يتركوها ترعى في أرض الله، ولا يتعرضوا لها بأي أذى؛ وإلا

فسينالهم عذاب قريب من وقت عَقْرِهم لها. فقتلوها، فأخذتهم الزلزلة الشديدة، وأرسلت عليهم صيحة واحدة فماتوا من شِدَّتِها، ونجّى الله صالحًا ومن آمن معه برحمته.

بعثة إبراهيم عليه السلام في العراق

ثم وُلِدَ إبراهيم عليه السلام بِبَابِلَ في العراق، وبعثه الله إلى الملك نمرود بن كنعان وقومه بالعراق، وكانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فدعاهم وجادلهم بالبينات، فلم يستجيبوا، ثم حطّم أصنامهم، فأوقدوا له نارًا عظيمة، ثُمَّ وَضَعُوه فِي كِفَّةِ مَنْجَنِيقٍ وأَلْقَوْهُ إِلَى النَّارِ. فجعلها الله بردًا وسلامًا عليه، وكانت آية من آيات الله، فخرج منها سالمًا. ثم ناظَرَ النُّمْرُودُ إبراهيمَ في وجود الله ورُبوبيَّته وأُلوهيَّته. وآمن لإبراهيم من قومه لوط وهو ابن أخيه هاران، ثم هاجر إبراهيم بزوجته سارة ابنة عمه هاران، وهاجر معهم لوط إلى أرض الشام، وحل العذاب بقوم إبراهيم.

قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر

وكانَ فِي مِصْرَ جَبَّارٌ مِنْ الْجَبابِرَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ أَرْضَهُ؛ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ امْرَأَتَهُ، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، وَلَا أَضُرُّكِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ؛ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ. فَعَادَ، فَقُبِضَتْ يَدُهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، فَلَكِ اللهَ أَنْ لَا أَضُرَّكِ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، فَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا (هَاجَرَ)، فَكَفَّ اللهُ يَدَ الْفَاجِرِ عَنْ سَارَةَ، وَرَزَقَهَا خَادِمًا.

رجوع إبراهيم من مصر إلى فلسطين

ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ إِلَى الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا، وَمَعَهُ أَنْعَامٌ وَعَبِيدٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَصَحِبَتْهُمْ هَاجَرُ الْقِبْطِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ.

ولادة إسماعيل من هاجر وغيرة سارة

ولمّا وهب جبار القرية (ملك مصر) هاجرَ إلى سَارَّةَ وكانت سارّة يَئِسَتْ مِنَ الْوَلَدِ؛ وهبت سارةُ هاجرَ الْقِبْطِيَّةَ الْمِصْرِيَّةَ لِإِبْرَاهِيمَ، فَوَلَدَتْ له هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ، فَغَارَتْ سَارَّةُ مِنْهَا و اشْتَدَّتْ غَيْرَةُ سَارَةَ مِنْ هاجرَ، وَطَلَبَتْ مِنَ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُغَيِّبَ وَجْهَ هاجرَ عَنْهَا.

انتقال هاجر وإسماعيل إلى مكة

ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - بهَاجَرَ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا فِي مَكَّةَ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ:

إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ؛ رَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا لَهُمْ.

قصة زمزم

وَكَانَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، ولَمَّا نَفِدَ عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَصَعَدَتْ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا تَنْظُرُ، هَلْ تَرَى أَحَدًا؟، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَسَمِعَتْ صَوْتًا، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ بِيَدِهَا، وغَرَفَتْ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِفُ. فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتُ اللهِ، يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

مجيء قبيلة جرهم إلى مكة

وَمَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا يَدُورُ عَلَى مَاءٍ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ. فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، وَشَبَّ إِسْمَاعِيلَ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ، وهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشَرَةَ سَنَةً، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَزَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.

إرسال لوط عليه السلام

ونَزَلَ لُوطٌ بِمَدِينَةِ سَدُومَ فدعاهم إلى توحيد الله، وأنكر عليهم فعل الفاحشة بالذكور لقضاء الشهوة بهم دون النساء اللائي خُلِقن لقضائها. فأصروا على كفرهم وفاحشتهم.

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة

وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ إِلى مَكَةَ، فَلَمَّا رَآهُ إِسْمَاعِيلُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟، قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا - فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِحَجَرٍ وهو{مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، ثم إِنَّ رِجْلَهُ الْكَرِيمَةَ غَاصَتْ فِي الصَّخْرَةِ فَصَارَتْ عَلَى قَدْرِ قَدَمِهِ حَافِيَةً غَيْرَ مُنْتَعِلَةً، وسُمِّي ذلكَ الحَجَرُ (مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ).

قصة الذبيح إسماعيل ومناسك الحج

وإِنَّ إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى، فَسَابَقَهُ، فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ

إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، وكان معه ابنه إسماعيل، فقال إبراهيم لابنه: يا بُنَيَّ إني رأيت في النوم أني أذبحك -ورؤيا الأبياء من الوحي- فانظر ما ترى في ذلك، فأجابه إسماعيل: يا أبي، افعل ما أمرك الله به من ذبحي، ستجدني من الصابرين الراضين بحكم الله. فَلَمَّا أَرَادَ ذَبْحَهُ؛ فَدَاهُ اللهُ بِكَبْشٍ أَبْيَضَ.

بشارة إبرهيم بإسحاق عليهما السلام

وَلما عَادَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى فِلِسْطِينَ جاءتِ الْمَلَائِكَةِ ومَرُّوا بِهِ مُجْتَازِينَ ذَاهِبِينَ إِلَى مَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ لِيُدَمِّرُوا عَلَيْهِمْ لِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، فَحَسِبَهُمْ أَضْيَافًا فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الضُّيُوفِ؛ شَوَى لَهُمْ عِجْلاً سَمِينًا، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَرَ لَهُمْ هِمَّةً إِلَى الْأَكْلِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا: {لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} لِنُدَمِّرَ عَلَيْهِمْ. فَاسْتَبْشَرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَارَةُ، فَلَمَّا ضَحِكَتِ اسْتِبْشَارًا بِذَلِكَ؛ بشرتها الملائكة أَنَّهَا سَتُرْزَقُ بابْنٍ لَهَا وَهُوَ إِسْحَاقَ، فَأَقْبَلَتِ فِي صَرْخَةٍ

فَصَكَّتْ وَجْهَهَا كَمَا يَفْعَلُ النِّسَاءُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، وَقَالَتْ: {يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا}؟، فأَكَّدُوا لها الْخَبَرَ بِهَذِهِ الْبِشَارَةِ. وَذَكَرَ اللَّهُ نبيَّه إسحاق بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَوُلِدَ لِإِسْحَاقَ يَعْقُوبُ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ.

إهلاك قوم لوط في قرى سدوم

وجاءت الملائكة لوطًا في هيئة رجال فساءه مجيؤهم، وخاف عليهم من قومه الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وقال لوط: هذا يوم شديد؛ لظنه أن قومه سيغالبونه على ضيوفه. وجاء قوم لوط مسرعين قاصدين فعل الفاحشة بضيوفه. وقالت الملائكة للوط: إنا رسلٌ أرسلنا الله، لن يصل إليك قومك بسوء، فاخرج بأهلك من هذه القرية في ساعة مظلمة من السَّحَر آخر الليل، وكن خلفهم ولا ينظر أحدكم إلى ما وراءه، وامضوا حيث تؤمرون. فسلمه الله وأهله (وهما ابنتاه)، إلا امرأته كانت من الغابرين الباقين مع قومها، وكَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الضَّيْفِ، وهي التي دلتهم على ضيف لوط. فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، وكان موعد

إهلاكهم الصبح، فأخذهم صوت شديد مهلك، ورفعت قراهم ثم قلبت، وأمطر الله عليهم حجارة من طين متصلب معلمة عند الله بعلامة خاصة مصفوف بعضها فوق بعض بتتابع، وبقي خسف مكان قوم لوط (منطقة البحر الميت) آية للعظة على طريق سفر متصل بمدين –وهي قرية أصحاب الأيكة- ذات الشجر الملتف، كما قال جل وعلا: (وإنهما لبإمام مبين) أي: على طريق واضح.

إرسال شعيب عليه السلام إلى مدين

وبعث الله إلى مدين نبيه شعيبًا عليه السلام، وكانوا قريبي عهد بلوط وقومه زمانًا ومكانًا. فدعاهم إلى توحيد الله وأن يتمُّوا المكيال والميزان بالعدل، وألا يفسدوا في الأرض، فرفضوا ترك عبادة الأصنام، وأصروا على التصرف بأموالهم كيف يشاؤون بالباطل. واستكبروا وطلبوا منه مستهزئين أن يسقط العذاب عليهم قطعًا من السماء إن كان صادقًا، فأخذهم عذاب يوم الظلة -وهي السحابة العظيمة- حيث أظلتهم بعد يوم شديد الحر، فرجفت بهم

الأرض، وتزلزلت زلزلة شديدة، وأمطرت السحابة عليهم نارًا فأحرقتهم. ونجى الله شعيبًا ومن آمن معه برحمته.

من فضائل خليل الله إبراهيم

وكَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَأَحَبَّ أَنْ يُشَاهِدَ ذَلِكَ عِيَانًا، فَأَجَابَهُ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَأَمَرَهُ أن يحضر أربعة من الطير وأَنْ يُمَزِّقَ لُحُومَهُنَّ وَرِيشَهُنَّ، وَيَخْلِطَ ذَلِكَ بَعْضَهُ فِي بَعْضٍ، ثُمَّ يُقَسِّمُهُ قِسَمًا، وَيَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا فَفَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ، ثُمَّ أُمِرَ أَنْ يَدْعُوَهُنَّ بِإِذْنِ رَبِّهِنَّ، فاجْتَمَعَ بَدَنُ كُلِّ طَائِرٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَأَتَيْنَ إِلَيْهِ سَعْيًا لِيَكُونَ أَبْيَنَ لَهُ وَأَوْضَحَ لِمُشَاهَدَتِهِ مِنْ أَنْ يَأْتِينَ طَيَرَانًا.

وكَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وكَانَ قُدْوَةً إِمَامًا، وَفَّى جَمِيعَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَقَامَ بِجَمِيعِ خِصَالِ الْإِيمَانِ وَشُعَبِهِ، وكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اخْتَتَنَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَتَنَ بِالْقَدُومِ.

وَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَشِيعَتِهِ. وأمر اللهُ المؤمنين أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى في المسجد الحرام والعبادة في مواقف الحج كلها، وَبَنَى إبراهيمُ أَشْرَفَ الْمَسَاجِدِ فِي أَشْرَفِ الْبِقَاعِ فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، وَدَعَا لِأَهْلِهَا بِالْبَرَكَةِ، وَأَنْ يُرْزَقُوا مِنَ الثَّمَرَاتِ مَعَ قِلَّةِ الْمِيَاهِ، وَعَدَمِ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ حَرَمًا مُحَرَّمًا وَأَمْنًا مُحَتَّمًا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ.

وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى لُغَتِهِمُ الْفَصِيحَةِ فاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً خَتَمَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَأَكْمَلَ لَهُ الدِّينِ. وإِبْرَاهِيمُ -عليه السلام- هو أول من يكسى يوم القيامة، وأَوْلَادُ الْمُسْلِمِينَ فِي جَبَلٍ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - وَسَارَةُ، حَتَّى يَرُدَّونَهُمْ إِلَى آبَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَبْرُ إِبْرَاهِيمَ وَقَبْرُ وَلَدِهِ إِسْحَاقَ وَقَبْرُ وَلَدِ وَلَدِهِ يَعْقُوبَ فِي الْمَرْبَعَةِ الَّتِي بَنَاهَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَلَدِ حَبْرُونَ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْمَعْرُوفُ بِالْخَلِيلِ الْيَوْمَ.

قصة ذي القرنين

وكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ الْعَادِلِينَ مُوَحِّدًا مُؤْمِنًا بِاَللَّهِ، وآتاه الله من كُلَّ شيء سَبَبًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى نَيْلِ مَقْصُودِهِ، وكَانَ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالْمَطَاعِمِ وَالزَّادِ مَا يَكْفِيهِ وَيُعِينُهُ عَلَى أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْآخَرِ، وقد مُكّن له في الأرض فقهر الجبابرة وأذلهم وكان يغزو عُبَّاد الأصنام.

ولما وصل إلى ما بين السدين -وهما سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان-؛ وجد قومًا لا يكادون يفقهون قولاً لعجمة ألسنتهم، وأعطى الله ذا القرنين من الأسباب ما فقه به ألسنة أولئك القوم، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج -وهما أمتان عظيمتان من بني آدم-، فَطلبَ منهم قِطَعَ الحديد، فوضعها بَيْنَ الجبلين، وأوقدوا نارًا عظيمة تذيب النحاس، فلما ذاب النحاس؛ أفرغه على الردم الذي بناه من قطع الحديد، فاستحكم السد، فما كان لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته.

يعقوب (إسرائيل) عليه السلام

واصطفى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بالنبوة، ويروى أنه رحل من بيت المقدس إلى خاله لابان بأرض حران؛ وَزَوَّجَه ابنتيه: ليا و راحيل. وكان ذلك سائغًا في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة، وولدت له ليا أولادًا، وولدت له راحيل يوسف وبنيامين. ورجع إلى فلسطين عند أبيه إسحاق عليهما السلام. ثم توفي إسحاق واستقر يعقوب هو وأبناؤه الأسباط الاثنا عشر في فلسطين، ومن ذرية الأسباط يتكون نسب بني إسرائيل.

أيوب عليه السلام

وإِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ - عليه السلام - لَبِثَ بِهِ بَلاؤُهُ ومرضُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَذَهَبَ مَالُهُ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانَ.

وَدَعاَ أَيُّوبُ رَبَّهُ أَنْ يَكْشِفَ مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ، وَكَانَ يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ، أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا

كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ أَنِ: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} فَاسْتَبْطَأَتْهُ، فَبَلَغَتْهُ تَنْظُرُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ واستجاب الله له، فَهو أَحْسَنُ مَا كَانَ.

فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارِكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللهِ عَلَى ذَلِكَ، مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هو.

وَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، أَفْرَغَتْ إِحْدَاهُمَا لَهُ فِي مَخْزَنِ الْقَمْحِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى عَلَى مَخْزَنِ الشَّعِيرِ الْفِضَّة حَتَّى فَاضَ، وبَيْنَمَا أَيُّوبُ - عليه السلام - يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ - عز وجل -: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ أَلَمْ يَكْفِكَ مَا أَعْطَيْنَاكَ؟، قَالَ: بَلَى يَارَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَاتِكَ وفَضْلِكَ.

وكان أقسم ليضربنَّ زوجته مائة جلدة إذا شفاه الله، لمَّا غضب عليها من أمر أثناء مرضه، وكانت امرأة صالحة؛ فأوحى الله إليه أن يأخذ بيده حُزمة شماريخ(أعواد)، ويضرب بها زوجته ضربة واحدة إبرارًا بيمينه، فلا يحنث. فخفف الله عنهما، وجمعه بأهله

جميعًا، وزاده عليهم مثلهم من البنين والحفدة رحمة به، وجزاءً له على صبره.

يوسف بن يعقوب عليه السلام

وكان يوسف وشقيقه الأصغر بنيامين هما أصغر أبناء يعقوب، وأُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسْنِ. ولما كان يوسف في سن الطفولة أخبر والده يعقوب عليهما السلام أنه رأى في المنامِ أحدَ عشَرَ كوكبًا والشَّمسَ والقمَرَ يسجدون له، ففهم يعقوب تفضيل يوسف على إخوته بالنبوة والعلم، لكنه خشي على يوسُفَ من حسد إخوته وكيدهم له ومن مكر الشيطان، فأمره ألا يقص هذه الرؤيا على إخوته.

وتشاكى إخوةُ يوسُفَ مِن أبيه فيما بينهم من محبة أبيهم ليُوسُفَ وأخاه الشَّقيقَ الأصغر بنيامين، وذكر بعضهم أن أباهم يعقوب يُفَضِّلُهما عليهم مع أنهم جماعةٌ أكثر عددًا وأكبر سنًا وأنفع في خدمة أبيهم من يوسف وأخيه. فقال بعضهم: اقتُلوا يوسُفَ، أو ألقُوه في أرضٍ مجهولةٍ، بعيدةٍ عن العُمرانِ، حتى يَخلُصَ لكم حُبُّ

أبيكم، ولا يلتفِتْ عنكم إلى غيرِكم، ثم تتوبوا من ذنبكم بعد قَتْلِ يُوسُفَ أو إبعادِه.

لكن أحدهم نصحهم ألا يقتُلوا يوسُفَ، وأن يكتفوا بإلقائه في جَوفِ البِئرِ حتى يلتَقِطْه بعضُ المارَّةِ مِن المُسافرينَ فيبعد عنهم ويستريحوا منه.

وبعدَ اتِّفاقِهم على إبعادِهِ طلبَ إخوةُ يوسُفَ من أبيهم أن يأذنَ في خروجِ يوسفَ معهم، وقالوا لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تأمَنُنا على يوسُفَ مع أنَّه أخونا، ونحن نُريدُ له الخيرَ، ونُشفِقُ عليه ونرعاه، ونخُصُّه بخالِصِ النُّصحِ؟ أرسِلْه معنا غدًا يأكُلْ ويَنشَطْ ويَفرحْ، ويلعَبْ بالاستِباقِ ونحوِه، وإنَّا لحافِظونَ له من كلِّ ما تخافُ عليه. فقال أبوهم يعقوبُ: إنِّي لَيؤلِمُ نفسي ذهابُكم به، ومُفارقتُه لي، وأخشى أن يأكُلَه الذِّئبُ وأنتم عنه غافِلونَ، فقال إخوةُ يوسُفَ لوالِدِهم: لئنْ أكَلَه الذِّئبُ ونحن جماعةٌ قويَّةٌ، إنَّا إذًا لخاسِرونَ، لا خيرَ فينا، ولا نَفعَ يُرْجَى منَّا.

فلمَّا أقنعوا أباهم وطمأنوه؛ ذهبَ إخوةُ يوسُفَ به، وأجمَعوا على إلقائِه في جَوفِ البِئرِ، وفعَلوا به ما فعلوا من الأذى، وأخذوا منه قميصه، وذبحوا سخلة (شاة وليدة) فأخذوا دمها

فلطخوا به القميص، وأوحَى الله إلى يوسُفَ أنه سيخبر إخوته مُستقبَلاً بفِعلِهم هذا الذي فعَلوه به، وهم لا يَعلَمونَ أنَّه أخوهم يوسُفُ.

ثم رجع إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم في وقتِ العِشاءِ يَتباكونَ، وأتوا في وقت الظلمة حتى لا يرى أعينهم ويدرك تحايلهم، وهم يُظهِرونَ الأسفَ والجَزعَ، وقالوا: يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نتسابَقُ، وترَكْنا يوسُفَ عند زادِنا وثيابِنا فأكَلَه الذِّئبُ، ونعلم أنك لن تصدقنا. ثم جاؤوا بقميصِه مُلطَّخًا بدَماء ليست بدَمِ يوسُفَ؛ لكي يبرهنوا صِدقِهم، وقيل أنهم: نسوا أن يمزقوا القميص، فكان دليلاً على كَذِبِهم، فكيف يأكل الذئب طفلاً دون تمزيق قميصه؟!

فقال لهم أبوهم يعقوبُ عليه السَّلامُ: ليس الأمرُ كما تقولونَ، بل زيَّنَت لكم أنفُسُكم الأمَّارةُ بالسُّوءِ أمرًا قبيحًا في يوسُفَ، فرأيتُموه حسَنًا وفعَلتُموه، فصبري صبرٌ جميلٌ لا شكوى معه لأحدٍ مِن الخَلقِ، وأستعينُ باللهِ على احتمالِ ما تَصِفونَ مِن الكَذِب، لا على حَولي وقوَّتي.

ثم جاءت جماعةٌ مِن المُسافرينَ فأرسَلوا مَن يطلُبُ لهم الماءَ، فلمَّا أنزل دَلْوَه في البئرِ ليحضر الماء؛ تعلَّقَ بها يوسُف، فقال

ذلك الوارِدُ: يا بُشرايَ هذا غلامٌ. وأخفَى أولئك المسافرون أمرَ يوسُفَ، وجعَلوه بضاعةً وعزَموا على بيعِه، وأخذوه معهم من فلسطين وباعوه في مصر بثَمَنٍ قليلٍ مِن الدَّراهِمِ، وكانوا زاهدينَ فيه، راغبينَ في التخَلُّصِ منه، واشتَراه منهم عزيزُها- وهو الوزيرُ- وقال لامرأتِه: أحسِني مُعامَلتَه، واجعلي مَقامَه عندنا كريمًا؛ لعلَّنا نستفيدُ مِن خِدمتِه أو نتبناه.

وبذلك أنجى اللهُ يوسُفَ مِن الجُبِّ (البئر)، وجَعَل وزيرَ «مصر» يَعطِفُ عليه، وعَلَّمَه الله تفسيرَ الرُّؤى، ومعاني كتُبِ الله وسُنَن الأنبياءِ. ولَمَّا بلغ يوسُفُ مُنتهى قوَّتِه في شبابِه أعطاه الله النُّبوَّةَ والعِلمَ، جزاءً على إحسانِه وصبره.

ولما كان يوسف بالغ الحسن والجمال تعلقت امرأة الوزير بحبه وخططت لإيقاعه في معاشرتها، فتهيأت وتزينت ودعته إلى نَفسِها، وغلَّقَت الأبوابَ عليها وعلى يوسُفَ، وقالت: هلمَّ إليَّ، فقال: معاذَ اللهِ! أعتَصِمُ به وأستجيرُ مِن الذي تدعِينَني إليه مِن خيانةِ سَيِّدي الذي أحسنَ مَنزِلتي وأكرَمَني، فلا أخونُه في أهلِه؛ إنَّه لا يُفلِحُ مَن ظَلمَ فَفَعل ما ليس له فِعلُه.

ولما استنفدت خططها وحيلها ولم تحصل على ما تريد منه؛ غضبت من امتناعه وتحفظه، وهمّت أن تضربه على تمنّعه وعصيانه أوامرها وهي امرأة سيده، وهمّ يوسفُ أن يَدْفَعَها أو يضربها لغضبه من شناعة ما بدر منها وإصرارها على السوء وإيقاعه فيه، مع أنه وعظها وحذّرها من شناعة ما تدعوه إليه، لكنه -بما علَّمه الله من حسن التدبير- أدرك أن بذل قوته في دفعها عن نفسه قد يُتَّخَذُ عليه حُجَّةً أنه أراد بقوته إجبار المرأة على مراد سيء، فلم يضربها ولم يدفعها عن نفسه، ورأى أن يكتفي بالإعراض عنها والسعي في الخروج من المكان، فإن اعتدت عليه -وهو معرض عنها-؛ فإنه يكون برهانًا من توفيق ربه يشهد بنزاهته وعفته، وهذا من فضل الله وتعليمه لنبيه، فهو سبحانه يصرف عن نبيه السُّوءَ والفاحِشةَ في جميعِ أمورِه؛ فيوسف من الأنبياء المُطَهَّرينَ المُصطَفَينَ للرِّسالةِ، الذين أخلَصَهم الله من الشِّركِ والسُّوءِ والفَحشاءِ.

وأسرعَ يوسُفُ إلى البابِ يريدُ الخُروجَ، وأسرَعَت غاضبة تُحاوِلُ الإمساكَ به، وجذَبَت قميصَه مِن خَلْفِه؛ لتَحُولَ بينه وبين الخروجِ فشَقَّته، ووجدا زوجَها عند البابِ، فبادرت المرأةُ محاوِلةً إبراء نفسها واتهمت يوسف، وقالت لزوجها: ما جزاءُ مَن أراد

بامرأتِك سوءًا إلَّا أن يُسجَنَ أو يُعذَّبَ العذابَ المُوجِعَ. وقال يوسُفُ -مدافعًا عن نفسه-: هي التي طلَبَتْ وحاولتْ، وأنا امتنعتُ منها.

فأرسل الوزيرُ إلى محقق أمين من أهل امرأته ليحقق في هذا الأمر، فحقق في الأمر ولم يجد أثرًا للاعتداء على المرأة، مع أن قميص يوسف مشقوق، وبعد التحقيق والنظر قال المحقق في حكمه للوزير: إن كان قميصُ يوسف شُقَّ من الأمامِ فصَدَقت في اتِّهامِها له؛ حيث يكون أرادها وهي امتنعت وشقت قميصه من الأمام عند الدفاع عن نفسها، وإن كان قميصُ يوسف شُقَّ من الخَلفِ؛ فكَذَبت في قَولِها، فتكون هي التي أرادته وهو معرض عنها، وهو من الصَّادقينَ.

فلمَّا رأى الوزير قميصَ يوسُفَ شُقَّ مِن خَلفِه عَلِمَ براءةَ يوسُفَ، وقال لزَوجتِه: إنَّ هذا الكَذِبَ الذي اتَّهَمتِ به هذا الشَّابَّ هو مِن جملةِ مَكرِكُنَّ- أيَّتُها النِّساءُ- إنَّ مَكرَكُنَّ عظيمٌ، وقال ليوسُفَ: يوسُفُ، اترُكْ ذِكرَ ما كان منها، فلا تَذكُرْه لأحدٍ، وقال لامرأته: اطلُبي- أيَّتُها المرأةُ- المغفرةَ لذَنبِك؛ إنَّك كنتِ من الآثمينَ في مُراودةِ يوسُفَ عن نفسِه، وفي افترائِكِ عليه.

ومع هذا التكتم فقد تسرّبَ وشاعَ خبرُ امرأةِ العزيزِ، وتحدث به نِسوةٌ في المدينةِ واغتبن امرأةَ العزيز وقُلنَ مُنكِراتٍ عليها: امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَاهَا عن نفسِه، وتدعوه إلى نَفسِها، وقد بلَغ حبُّها له مبلغًا عظيمًا، إنَّا لَنَراها في هذا الفِعلِ في ضلالٍ واضِحٍ. وقد مكر النسوة بهذا القول لرغبتهن أن يصل هذا الكلام إلى امرأة العزيز فتريهم يوسف وجماله.

فلمَّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ بغِيبتِهنَّ إيَّاها، واحتيالِهنَّ في ذمِّها؛ أرسَلَت إليهنَّ تَدعوهنَّ لزيارتِها، وهيَّأَت لهنَّ ما يتَّكِئنَ عليه مِن الوسائِدِ، وما يأكُلنَه مِن الطَّعامِ، وأعطَتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّينًا؛ ليُقَطِّعنَ الطَّعامَ، ثمَّ قالت ليوسُفَ: اخرُجْ عليهنَّ، فلمَّا رأينَه أعظَمْنَه وأجلَلْنَه، وأخَذَهنَّ حُسنُه وجَمالُه، فجَرَحنَ أيديَهنَّ وهُنَّ يُقَطِّعنَ الطَّعامَ؛ مِن فَرْطِ النظر إليه والدَّهشةِ والذُّهولِ، وقُلنَ مُتعَجِّباتٍ: مَعاذَ اللهِ، ما هذا مِن جِنسِ البشَرِ؛ لأنَّ جمالَه غيرُ مَعهودٍ في البشَرِ، ما هو إلَّا مَلَكٌ كريمٌ مِن الملائكة.

عندها أبدت امرأةُ العزيزِ عذرها في مراودة يوسف من شدة جماله، وقالت للنِّسوةِ اللَّاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ: فهذا- الذي أصابَكنَّ لمجرد رؤيَتِكنَّ إيَّاه - هو الفتى الذي لُمتُنَّني في الافتتانِ به، ولقد

راودتْه عن نفسِه، فامتنَعَ وأبى، ولئنْ لم يفعَلْ ما آمُرُه به لَيُعاقَبَنَّ بدخولِ السِّجنِ، ولَيكونَنَّ مِن الأذلَّاءِ. وكانت تُسمِعُ يوسفَ هذا الكلام مهددة له أمامهن، فكأنهن أشرن على يوسف أن يجيبها لما تريد وألا يعرض نفسه للسجن والأذى.

فقال يوسُفُ مُستعيذًا مِن شَرِّهنَّ ومَكرِهنَّ: ربِّ، السِّجنُ أحَبُّ إليَّ ممَّا يدعونَني إليه مِن عمَلِ الفاحِشةِ، وإنْ لم تدفَعْ عنِّي مَكرَهنَّ أَمِلْ إليهنَّ، وأكُنْ مِن الجاهلينَ، فاستجاب اللهُ ليوسُفَ دعاءَه، فصرف عنه ما أرادت منه امرأةُ العزيزِ وصَواحِباتُها مِن معصيةِ الله، فهو سبحانه سميع عليم.

ثمَّ ظهر للعزيزِ وأصحابِه - من بعدِ ما رأَوا الأدلَّةَ على براءةِ يوسُفَ وعِفَّتِه وحديث النسوة في المدينة- أن يسجُنوا يوسف إلى مُدَّةٍ مِن الزَّمَن؛ لينقطِعَ بذلك الخبرُ، ويتناساه النَّاسُ.

ودخَل مع يوسفَ عليه السلامُ السجنَ فَتَيانِ، قال له أحدهما: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أعصِرُ عِنبًا ليصيرَ خَمرًا، وقال الآخرُ: إنِّي رأيتُ أنِّي أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزًا تأكلُ الطَّيرُ منه، أخبِرْنا- يا يوسُفُ- بتفسيرِ ما رأينا، إنَّا نراك من المحسنين. قال لهما يوسفُ: لا تريانِ في مَنامِكما طَعامٌ تُرزَقانِه إلَّا أخبَرتُكما بتفسيرِه في

اليقَظةِ قبل أن يأتيَكما، ذلك التَّعبيرُ الذي سأعبِّرُه لكما ممَّا علَّمَني ربِّي؛ إنِّي آمنتُ به، وأخلصتُ له العبادةَ، وابتعدتُ عن دينِ قَومٍ لا يُؤمِنونَ باللهِ، وهم بالبَعثِ والحِسابِ جاحِدونَ، واتَّبَعتُ دينَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فعبدتُ اللهَ وَحدَه، ما كان لنا أن نجعلَ للهِ شريكًا في عبادتِه، ذلك التَّوحيدُ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ، ممَّا تفضَّلَ اللهُ به علينا وعلى النَّاسِ الذين جعَلَنا دُعاةً لهم إلى توحيدِه، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يشكُرونَ.

وأخذ يوسف يدعوهما إلى توحيد الله ويبيّن لهما الدين الحق، وقال لهما: يا ساكِنَي السِّجنِ، أعبادةُ آلهةٍ مخلوقةٍ شَتَّى خيرٌ أم عبادةُ اللهِ الواحدِ القَّهارِ؟ ما تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ إلَّا أسماءً لا معانيَ وراءَها، جعلتُموها أنتم وآباؤكم أربابًا، جهلاً منكم وضلالاً، ما أنزل اللهُ مِن حُجَّةٍ أو برهانٍ على صِحَّتِها، وما الحُكمُ إلَّا للهِ تعالى وَحدَه لا شريكَ له، هو سبحانه أمَرَ ألَّا تعبُدوا أحدًا غيرَه، وهذا هو الدِّينُ القيِّمُ الذي لا عِوَجَ فيه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ يجهَلون ذلك، فلا يعلمونَ حقيقتَه.

ثم فسر لهما رؤياهما بقوله: أمَّا أحدُكما فإنَّه يخرجُ مِن السِّجنِ، ويكونُ ساقيَ الخَمرِ للمَلِك، وأمَّا الآخَرُ فإنَّه يُصلَبُ ويُترَكُ،

فتأكُلُ الطَّيرُ مِن رأسِه، فُرِغَ من تأويل رؤياكما وهو واقع بقضاء الله. وقال يوسُفُ للذي علِمَ أنَّه ناجٍ من صاحِبَيه: اذكُرني عند سيِّدِك المَلِك، وأخبِرْه بأنِّي مظلومٌ، قد سُجِنْتُ بلا ذَنبٍ، فأنسَى الشَّيطانُ ذلك الرَّجُلَ أن يَذكُرَ للمَلِك حالَ يوسُفَ، فمكثَ يوسُفُ بعد ذلك في السِّجنِ عِدَّةَ سَنواتٍ.

وبعد تلك السنين جمع ملك مصر أهل الشورى والعلم وقال لهم: إنِّي رأيتُ في منامي سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهنَّ سَبعُ بقَراتٍ نَحيلاتٍ مِن الهُزالِ، ورأيتُ سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسَبعَ سُنبُلاتٍ يابساتٍ يلتففن على السنبلات الخضر ويسقطنهن، يا أيُّها الأشرافُ والكُبَراءُ أخبِروني عن هذه الرُّؤيا، إن كنتُم على علمٍ بتفسيرِ الرُّؤى. فقالوا له: رؤياك هذه أخلاطُ من الأحلامِ لا تأويلَ لها، وما نحن بتفسيرِ الأحلامِ المختلطةِ بعالِمينَ.

وهنا تذكر ساقي الملك -وهو الذي نجا من الفَتيَينِ اللَّذينِ كانا في السِّجنِ معَ يُوسفَ- أن يوسف عليه السلام يتقن تأويل الرؤى، فقال للملك ومن معه: أنا أُخبِرُكم بتأويلِ هذه الرُّؤيا، فابعَثوني إلى يوسُفَ المسجونِ؛ لآتيَكم بتفسيرِها. وعندما وصل الرَّجُلُ إلى يوسُفَ قال له: يا يوسُفُ يا أيُّها الصِّدِّيقُ فسِّرْ لنا رؤيا

مَن رأى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهنَّ سَبعُ بقَراتٍ هَزيلاتٍ، ورأى سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابساتٍ؛ لعلِّي أرجِعُ إلى المَلِك وأصحابِه فأُخبِرُهم؛ لِيعلموا تأويلَ ما سألتُك عنه، ولِيعلَموا مكانتَك وعلمك وفَضلَك.

فقال يوسُفُ لسائِلِه عن رُؤيا المَلِك: تفسيرُ هذه الرُّؤيا هو أنَّكم تزرعونَ سبعَ سِنينَ مُتتابِعةً جادِّينَ ليَكْثُرَ العَطاءُ، فما حصدتُم منه في كلِّ مرَّةٍ فادَّخِروه واترُكوه في سُنبُله؛ لئلَّا يَفْسُدَ، إلَّا قليلاً ممَّا تأكُلونَه من الحُبوبِ. ثمَّ يأتي بعد هذه السِّنينَ الخِصْبةِ سبعُ سنينَ شديدةُ الجَدْبِ، يُؤكَلُ فيهنَّ كلُّ ما ادَّخَرتُم لهنَّ مِن قَبلُ، إلَّا قليلاً ممَّا تَحفَظونَه وتدَّخِرونَه. ثمَّ يأتي مِن بعدِ هذه السِّنينَ المُجدِبةِ عامٌ يُمطَرُ فيه النَّاسُ مطرًا يغيثهم ويروي أراضيهم، فيرفَعُ اللهُ تعالى عنهم الشِّدَّةَ، ويَعصِرونَ فيه الثِّمارَ؛ مِن كثرةِ الخِصْبِ والنَّماءِ.

ولَمَّا علِمَ المَلِكُ بتأويلِ رُؤياه قال لأعوانِه: أخرِجوا هذا الرجُلَ المعبِّرَ للرُّؤيا من السِّجنِ، وأحضِروه لي، فلمَّا جاءه رسولُ المَلِك يدعوه، قال يوسُفُ للرَّسولِ: ارجِعْ إلى سَيِّدِك المَلِك، واطلُبْ منه أن يسألَ النِّسوةَ اللَّاتي جَرَحْنَ أيديَهنَّ عن حقيقةِ أمْرِهنَّ وشأنِهنَّ معي؛ لتظهَرَ الحقيقةُ للجميعِ، وتتَّضِحَ براءتي، إنَّ

رَبِّي عليمٌ بصَنيعِهِنَّ وأفعالِهِنَّ، لا يخفى عليه- سُبحانه- شَيءٌ مِن ذلك.

فدعا المَلِكُ النِّسوةَ اللَّاتي جرَحْنَ أيديَهنَّ، وقال لهنَّ: ما شأنُكنَّ حين راودتُنَّ يوسُفَ عن نفسِه يومَ الضِّيافةِ؟ فهل رأيتُنَّ منه ما يَريبُ؟ قُلنَ: معاذَ اللهِ ما عَلِمْنا عليه أدنى شيءٍ يَشِينُه، عند ذلك قالت امرأةُ العزيزِ: الآنَ ظهرَ الحَقُّ بعدَ خفائِه، فأنا التي حاوَلْتُ فِتنَتَه بإغرائِه فامتنَعَ، وإنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ في كُلِّ ما قاله، ذلك القَولُ الذي قُلتُه في تنزيهِه والإقرارِ على نفسي؛ ليعلمَ يوسُفُ أنِّي لم أخُنْه بالكَذِبِ عليه حالَ غَيبتِه عنِّي، وأنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ أهلَ الخيانةِ، ولا يُرشِدُهم في خيانتِهم، وما أزَكِّي نفسي ولا أُبَرِّئُها؛ إنَّ النَّفسَ لَكثيرةُ الأمرِ لصاحِبِها بعمَلِ المعاصي؛ طلبًا لمَلذَّاتِها، إلَّا مَن عصَمَه الله، إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ مَن تاب مِن عبادِه، رحيمٌ بهم.

وحين عَلِمَ مَلِكُ مصرَ بَراءةَ يوسُفَ قال: جيئُوني به أجعَلْه مِن خُلَصائي وأهلِ مَشورتي، فلَمَّا جاء يوسُفُ، وكلَّمَه المَلِكُ، وعرَفَ براءتَه، وعظيمَ أمانتِه، وحُسنَ خُلُقِه وجليل علمه؛ قال له: إنَّك اليومَ عندنا عظيمُ المَكانةِ، ومُؤتمَنٌ على كلِّ شَيءٍ، وأراد يوسُفُ أن ينفعَ العبادَ، ويُقيمَ العدلَ بينهم، فقال للمَلِكِ: اجعَلْني واليًا على

خزائنِ مِصرَ؛ فإنِّي خازِنٌ أمينٌ، ذو عِلمٍ وبصيرةٍ بما أتولَّاه. وكذلك أنعَمَ اللَّهُ على يوسُفَ بالخَلاصِ مِن السِّجنِ، ومكَّنَ له في أرضِ مصرَ ينزِلُ منها أيَّ مَنزِلٍ شاءَه، وجعله عزيز مصر والوالي على خزائنها.

ثم قدِمَ إخوةُ يوسُفَ إلى مِصرَ بعد أنْ حلَّ بهم الجَدبُ في أرضِهم؛ ليَجلِبوا منها الطَّعامَ، فدَخَلوا على يوسفَ، فعَرَفهم لأنه رآهم كبارًا ولم يتغيروا كثيرًا، ولم يَعرِفوه هم لطولِ المدَّةِ حيث فارقهم طفلاً صغيرًا، وقد شبَّ وتغيَّرت هيئتِه. فأمَرَ يوسُفُ بإكرامِهم وحُسنِ ضيافتِهم، ثمَّ أعطاهم مِن الطَّعامِ ما طلَبوا، وسألهم عن أهلهم وأحوالهم وعددهم، فأخبَروه أنَّ لهم أخًا مِن أبيهم لم يُحضِروه معهم- يُعنونَ شَقيقَه- فقال: في المرة القادمة ائتُوني بأخيكم مِن أبيكم، ألم تَرَوا أنِّي أوفيتُ لكم الكَيلَ، وأكرَمتُكم في الضِّيافةِ، وأنا خيرُ المُضْيفينَ لِمَن نزَلَ بي؟ فإنْ لم تأتوني به فليس لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم، ولا تأْتوا إليَّ. فقالوا: سنبذُلُ جُهدَنا لإقناعِ أبيه أنْ يُرسِلَه معنا، ولن نُقصِّرَ في ذلك.

وقال يوسُفُ لغِلمانِه: أعيدوا لهم الثمَنَ الذي دفعوه واجعلوه في أمتعتِهم سِرًّا مع ما أعطيناهم من البضائع؛ رجاءَ أن يَعرِفوا إذا انصرفوا إلى أهلِهم وفتحوا أمتعتهم هناك؛ أنا أكرمناهم

وضيفناهم وأوفينا لهم أفضل الكيل والبضاعة وأعدنا لهم الثمن فلم نأخذ منهم شيئًا مقابل كل ذلك، ليكون ذلك أدعى لهم في الرجوع إلينا مرَّةً أُخرى.

فلَمَّا رجَعوا إلى أبيهم قصُّوا عليه ما كان مِن إكرامِ الوزير لهم، وقالوا: إنَّه لن يُعطيَنا مُستقبَلاً إلَّا إذا كان معنا أخونا – بنيامين- حيثُ أخبَرناه به، فأرسِلْه معنا نُخضِرِ الطَّعامَ وافيًا، ونتعهَّدُ لك بحِفظِه. فقال لهم أبوهم: كيف آمَنُكم على بنيامين وقد أمِنتُكم على أخيه يوسُفَ مِن قَبلُ، والتَزمتُم بحِفظِه فلم تَفُوا بذلك؟! فلا أثِقُ بالتزامِكم وحِفظِكم، ولكِنِّي أثِقُ بحِفظِ الله؛ خيرِ الحافِظينَ، وأرحَمِ الرَّاحمينَ.

ولَمَّا فَتَحوا أوعيَتَهم وجَدوا ثمنَ بضاعتِهم الَّذي دَفَعوه قد رُدَّ إليهم، قالوا: يا أبانا ماذا نطلُبُ أكثَرَ مِن هذا؟! هذا ثمنُ بضاعتِنا رَدَّه العزيزُ إلينا، فكُنْ مُطمَئِنًّا على أخينا، وأرسِلْه معنا؛ لنجلِبَ طَعامًا وفيرًا لأهلِنا، ونحفَظ أخانا، ونزداد حِمْلَ بعيرٍ له؛ فإنَّ العزيزَ يَكيلُ لكلِّ واحدٍ حِمْلَ بعيرٍ، وذلك كَيلٌ يسيرٌ عليه. فقال لهم يعقوبُ: لن أترُكَه يذهَبُ معكم حتَّى تتعَهَّدوا وتحلِفوا لي باللَّهِ أن ترُدُّوه إليَّ، إلَّا أن تُغْلَبوا عليه فلا تستطيعوا تخليصَه، فلَمَّا أعطَوه عهدَ اللَّهِ على

ما طلَبَ، قال يعقوبُ: اللَّهُ على ما نقولُ وكيلٌ، تكفينا شَهادتُه علينا، وحِفظُه لنا.

ولَمَّا أرادوا الذَّهابَ إلى مصرَ خاف عليهم يعقوب من العين، وأمرهم بالأخذ بالأسباب. وقال لهم: يا أبنائي إذا دخَلتُم مدينة مصرَ فلا تدخُلوا مِن بابٍ واحدٍ، ولكن ادخُلوها مِن أبوابٍ مُتفَرِّقةٍ، وإنِّي إذ أُوصيكم بهذا لا أدفَعُ عنكم شيئًا قضاه اللَّهُ عليكم، فما الحُكمُ إلَّا للَّهِ وَحدَه، عليه اعتَمَدتُ ووَثِقتُ، وعليه وَحدَه يتوكل المؤمِنونَ.

ولَمَّا دخلَ إخوةُ يوسُفَ عليه في مَنزِلِ ضِيافتِه ومعهم شَقيقُه، ضمَّ يوسُفُ إليه شقيقَه، وقال له سِرًّا: إنِّي أنا أخوك فلا تحزَنْ، ولا تغتمَّ بما صنَعوه بي وبك فيما مضى، وأمَرَه بكتمانِ ذلك عنهم، فلَمَّا جهَّزهم يوسُفُ، وحمَّلَ إبِلَهم بالطَّعامِ، جعَلَ الإناءَ- الَّذي يشرَبُ فيه المَلِكُ ويكيلُ للنَّاسِ به (الصُواع) - في متاعِ أخيه الشَّقيقِ مِن حيثُ لا يشعُرُ أحَدٌ، ولَمَّا رَكِبوا ليَسيروا نادى مُنادٍ قائلًا: يا أصحابَ هذه العِيرِ المُحمَّلةِ بالطَّعامِ، إنَّكم لسارِقونَ، فقال أولادُ يعقوبَ مُقبِلينَ على المُنادي: ما الَّذي تَفقِدونَه؟ قال المُنادي ومَن بحَضرتِه: نَفقِدُ الإناءَ الَّذي يشرَبُ فيه المَلِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ،

ومُكافأةُ مَن يُحضِرُه مِقدارُ حِمْلِ بعيرٍ مِن الطَّعامِ، وقال المنادي: وأنا ضامِنٌ هذه المكافأة لمن يأتي به.

فقال إخوةُ يوسُفَ: لقد تحقَّقتُم ممَّا شاهَدتُموه منَّا أنَّنا ما جِئنا أرضَ مصرَ مِن أجلِ الإفسادِ فيها، وليست السرقةُ مِن صِفاتِنا، و –بأمر يوسف- قال المُنادي ومَن معه لإخوةِ يوسُفَ: فما عُقوبةُ السَّارِقِ عِندَكم إن كُنتُم كاذبينَ في قَولِكم؟ فقال إخوةُ يوسُفَ: جزاءُ السَّارِقِ عندنا في شريعتنا أن يُسلَّمَ إلى مَن سرَقَ منه؛ حتَّى يكون عبدًا عندَه، مثلَ هذا الجزاءِ- وهو الاسترِقاقُ- نَجزي الظَّالِمينَ بالسَّرِقةِ، وهذا دينُنا وسُنَّتُنا في أهلِ السَّرِقةِ.

فرجع إخوةُ يوسُفَ إليه، وقام يوسُفُ بنَفسِه يُفتِّشُ أمتِعتَهم، فبدَأَ بأمتِعَتهم قبل مَتاعِ شَقيقِه؛ إحكامًا لِما دبَّرَه لاستبقاءِ أخيه معه، ثمَّ انتهى بوعاءِ أخيه، فاستخرجَ الإناءَ (الصواع) منه، كذلك يسَّرَ الله لِيوسُفَ هذا التَّدبيرَ الَّذي توصَّلَ به لأخْذِ أخيه بإقرار إخوته وحسب شريعتهم، وما كان له أن يأخُذَ أخاه في حُكمِ مَلِكِ مصرَ- لأنَّه ليس مِن دينِه أن يتمَلَّكَ السَّارِقَ-، لكن الأمر تم ليوسف بمَشيئةَ اللَّهِ، فقد كادَ اللهُ وقدّر لِمصلحة يوسُفَ، حتَّى

يتمكَّنَ مِن أخْذِ شقيقِه مِن إخوتِه، بناءً على شريعتِهم، وإقرارِهم بأنفُسِهم.

فالله سبحانه يرفع مَنازِلَ من يشاء في الدُّنيا على غيرِه بالعلم والتدبير، كما رفَعَ منزلةَ يوسُفَ، وفوقَ كُلِّ ذي علمٍ مَن هو أعلَمُ منه، حتَّى ينتهيَ العِلمُ إلى اللَّهِ تعالى عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ.

ولَمَّا استُخرِجَ الصُّواعُ مِن رَحلِ أخيهم قال إخوةُ يوسُفَ: إنْ سرَقَ هذا فقد سرَقَ أخٌ شقيقٌ له مِن قَبلُ- يقصِدونَ يوسُفَ عليه السَّلامُ- فأخفَى يوسُفُ في نفسِه كلمةً حدَّثَ نفسَه بها قائلاً: أنتم أسوأُ مَنزلةً ممَّن ذكَرْتُم؛ حيثُ دبَّرتُم لي ما كان منكم، واللَّهُ أعلَمُ بما تَصِفونَ مِن الكَذِبِ والافتراءِ.

ثم تذكر إخوة يوسف ميثاقهم مع أبيهم أن يعيدوا بنيامين إليه، فقالوا ليوسف مُستعطفينَ: يا أيُّها العَزيزُ، إنَّ له والدًا كبيرًا في السِّنِّ يحِبُّه، ولا يُطيقُ بُعدَه، فخُذْ أحَدَنا بدلاً منه؛ إنَّا نراك مِن المُحسنينَ. فقال يوسُفُ: نَستعيذُ باللَّهِ أن نأخُذَ أحدًا غيرَ الَّذي وجَدْنا الصُّواعَ عندَه؛ فإنَّنا نكونُ في عِدادِ الظَّالمينَ إن فعَلْنا ما تطلُبونَ.

فلَمَّا يَئِسوا مِن إجابتِه إيَّاهم لِمَا طَلَبوه، انفَرَدوا عن النَّاسِ، وأخَذوا يتشاوَرونَ فيما بينهم. فقال كبيرُهم: ألم تَعلَموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم العهدَ المُؤَكَّدَ؛ لَتَرُدُّنَّ أخاكم إلَّا أن تُغلَبوا، ومِن قبلِ هذا كان تقصيرُكم في يوسُفَ وتضييعُكم له؛ لذلك لن أُفارِقَ أرضَ مِصرَ حتَّى يأذنَ لي أبي في مُفارَقتِها، أو يقضيَ لي ربِّي بالخُروجِ منها، واللهُ خيرُ مَن حَكَمَ، وأعدَلُ مَن فَصَلَ بين النَّاسِ.

ثم قال لهم: ارجِعُوا إلى أبيكم، وأخبِروه بما جرَى، وقُولوا له: إنَّ ابنَكَ قد سرَقَ، وما شَهِدْنا بذلك إلَّا بعدَ أنْ تَيَقَّنَّا؛ فقد رأيْنا المِكيالَ في رَحْلِه، وما كان عِندَنا عِلمُ الغَيبِ أنَّه سيَسرِقُ حين عاهَدْناكَ على رَدِّه، واسألْ- يا أبانا- أهلَ مِصرَ، ومَن كان معَنا في القافِلةِ الَّتي كنَّا فيها، وإنَّنا لصادِقونَ فيما أخبَرْناكَ به.

ولَمَّا رجَعوا وأخبَروا أباهم، قال لهم: بل زَيَّنَتْ لكُم أنفُسُكم مَكيدةً دبَّرتُموها، كما فعَلتُم مِن قَبلُ مع يُوسُفَ، فصَبري صبرٌ جَميلٌ، لا جزَعَ فيه ولا شَكوَى معه؛ عسى اللَّهُ أنْ يرُدَّ إليَّ أبنائي جميعًا- يوسُفُ، وشقيقُه، وأخوهمُ الكبيرُ الَّذي تخلَّفَ مِن أجْلِ أخيه-؛ إنَّه هو العليمُ بحالي، الحَكيمُ في تدبيرِه. وأعرَضَ يَعقوبُ عنهم، وقد ضاق صَدرُه بما قالوه، وقال: يا حَسرَتي على يوسُفَ،

وابيضَّتْ عيناه؛ مِن شِدَّةِ الحُزنِ، وذهب بصره، فهو مُمتلئُ القَلبِ حُزنًا، ولكِنَّه شَديدُ الكِتمانِ له.

فقال بَنُوه: تاللَّهِ، ما تزالُ تتذكَّرُ يوسُفَ، ويَشتدُّ حُزنُك عليه، حتَّى تُشْرِفَ على الهَلاكِ أو تَهلَكَ فِعلاً، فخَفِّفْ عن نفْسِك. فقال يعقوبُ مُجيبًا لهم: لا أُظهِرُ همِّي وحُزني إلَّا إلى اللَّهِ وَحْدَه؛ فهو كاشِفُ الضُّرِّ والبَلاءِ، وأعلَمُ مِن رَحمةِ اللَّهِ وفَرَجِه ما لا تَعلَمونَه.

وكأنّ يعقوب قد تفكر في حال ذلك الرجل الكريم -عزيز مصر- الذي أكرم أولاده وضيّفهم في زمن القحط، وأوفى لهم الكيل، ورد لهم الثمن، وطلب منهم إحضار أخيهم ليكرمه، فكأنّه رأى فيه كرم النبوة وكرم جده إبراهيم عليه السلام حيث أنه أول من ضَيَّفَ الضيْف، كما أنّ ذلك العزيز حكم بشريعة يعقوب في استرقاق السارق، فاجتمعت فيه خصالٌ من أخلاق الإيمان والنبوة، وكذلك كان مايرجوه يعقوب ليوسف من النبوة حين أخبره عن رؤياه وهو صغير. فقال يعقوب لأبنائِه: عُودُوا إلى مِصرَ، فاستَقْصُوا أخبارَ يوسُفَ وأخيه، ولا تَقنَطوا مِن رَحمةِ اللَّهِ؛ إنَّه لا يَقنَطُ مِن رَحمةِ اللَّهِ إلَّا الجاحِدونَ لقُدرتِه، الكافِرونَ به.

ثم إنَّ إخوةَ يوسُفَ لما رجَعوا إلى مِصْرَ، ودخَلوا على يوسُفَ، أرادوا استرقاق قلبه بضعفهم وشدة حاجتهم، فإن رأوا منه لينًا وشفقة؛ حاولوا معه أن يطلق لهم أخاهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أيُّها العزيزُ، أصابَنا وأهْلَنا القَحْطُ والجَدْبُ، وجِئْناكَ بثَمنٍ رَديءٍ قليلٍ، فأعْطِنا به ما كُنتَ تُعطِينا وتُكرمنا مِن قَبلُ بالثَّمَنِ الجَيِّدِ، وتصدَّقْ علينا بقَبضِ هذه الدَّراهِمِ الْمُزجاةِ وتَجوَّزْ فيها؛ إنَّ اللَّهَ تعالى يُثيبُ المتفَضِّلينَ بأموالِهم على المحتاجينَ.

فلَمَّا سمِعَ مَقالتَهم رَقَّ لهم، وعرَّفَهم بنَفْسِه، وقال: هلْ تذكُرونَ الَّذي فعَلْتُموه بيوسُفَ وأخيه مِنَ الأذَى في حالِ جَهْلِكم بعاقبةِ ما تَفعلونَ؟ قالوا: أإنَّكَ لَأنتَ يوسُفُ؟! قال: نَعَمْ، أنا يوسُفُ، وهذا شَقيقي، قد تفضَّل اللَّهُ علينا، فجَمَعَ بيْننا بعدَ الفُرقةِ؛ إنَّه مَن يتَّقِ اللَّهَ، ويَصبِرْ على المِحَنِ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُذهِبُ ثوابَ إحسانِه، وإنَّما يَجْزيه أحسَنَ الجَزاءِ.

قالوا: واللَّهِ، لقد فَضَّلكَ اللَّهُ علينا، وأعزَّك بالعِلْمِ والحِلمِ، والفَضلِ والكَرَم والمُلكِ والجَمَال، وقد كنَّا خاطِئينَ فِيما فعَلْناه بكَ. فقال لهم يوسُفُ: لا تَأنيبَ عليكمُ اليومَ، يَغفِرُ اللَّهُ لكم، وهو أرحَمُ الرَّاحمينَ لِمَن تاب مِن ذَنبِه، وأناب إلى طاعتِه.

ولَمَّا سألَهم عن أبيه أخبَروه بذَهابِ بَصَرِه مِنَ البُكاءِ عليه، فقال لهم: عُودُوا إلى أبيكم ومعَكم قَميصي هذا، فاطْرَحوه على وجهِ أبي؛ يَعُدْ إليه بَصَرُه، ثم أَحْضِروا إليَّ جميعَ أهلِكم.

ولَمَّا خرجَتْ قافلةُ بَني يَعقوبَ من مِصْرَ مُتَّجِهةً إلى الشَّامِ، سارعت الريح بحمل رائحة يوسف إلى يعقوب، وقال يعقوبُ لِمَنْ حَضَرَ عندَه في فلسطين: إنِّي لَأَشَمُّ رائحةَ يوسُفَ، لولا أن تُكَذِّبوني وتَنسُبوني إلى الهَرَمِ والخَرَفِ، فقال له الحاضِرونَ: واللَّهِ، إنَّك لفي خَطئِك الَّذي كنتَ عليه قديمًا. فلَمَّا أنْ جاء يعقوبَ ولدُه المبَشِّرُ برِسالةِ يوسُفَ، أَلْقَى قَميصَ يوسُفَ على وجْهِ أبيه، فعاد مُبْصِرًا بعَينَيهِ كما كان. وقال يعقوبُ لأولادِه: أَلَمْ أَقُلْ لكم: إنِّي أعلمُ مِنَ اللَّهِ تعالى ما لا تَعلمونَه؟ فقالوا له: يا أبانا، ادعُ اللَّهَ أنْ يَغفِرَ لنا ذُنوبنَا؛ إنَّا نَعترِفُ بأنَّنا كُنَّا خاطِئينَ، فقال لهم أبوهم: سوف أستغفر لكم ربِّي؛ إنَّه هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

فلَمَّا دخَلَ يعقوبُ وأهلُه على يوسُفَ ضمَّ إليه أبويْه، وقال لجميعِ أهلِه: ادخُلوا مصرَ آمنينَ إنْ شاءَ اللَّهُ، وأجلَسَ أباه وأمَّه على العَرشِ الَّذي يجلِسُ عليه، وخرَّ الجميعُ له سُجودًا؛ تحيةً وتعظيمًا ليوسُفَ، وقال لأبيه: يا أبتِ هذا السُّجودُ منكم لي هو تَفسيرُ

رُؤْيايَ الَّتي رأيتُها في صِغَري، قد حقَّقَها ربِّي، وقد أحسَنَ بي جلَّ وعلا حين أخرَجني مِن السِّجنِ، وجاء بكم مِن الباديةِ مِن بَعدِ أنْ أفسَدَ الشَّيطانُ بَيني وبين إخوتي؛ إنَّ ربِّي لطيفٌ لِمَا يُريدُه، إنَّه هو العليمُ الحَكيمُ.

وقال يوسُفُ داعيًا ربَّه: ربِّي قد آتيتَني مِن مُلْكِ مصرَ، وعلَّمتَني مِن تَعبيرِ الرُّؤى، ومِن عُلومِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وسُنَنِ الأنبياءِ، يا خالقَ السَّمواتِ والأرضِ، أنت ناصِري ومُتولِّي أُموري في الدُّنيا والآخِرَةِ، تَوفَّني وأنا على الإسلامِ، وألْحِقْني في الثَّوابِ والدَّرجاتِ بالصَّالِحين.

مكوث بني إسرائيل في مصر

وكان بنو إسرائيل قد استقروا في مصر بعد ما حصل التمكين ليوسف فيها، ومات يعقوب ودفن عند آبائه في فلسطين، وأقام إخوة يوسف في مصر، ثم حضرت يوسف الوفاة؛ فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر؛ فيدفن عند آبائه، فحنطوه، ووضعوه في تابوت.

وبعد ذلك تناسل الأسباط –وهم ذرية يعقوب (إسرائيل) من أبنائه الإثني عشر- وكثروا، ثم اضطهدهم فرعون في مصر خشية أن يكون منهم من يسلبه ملكه، وأصبح يقتل مواليدهم الذكور، ثم صار يقتل عامًا ويترك عامًا حتى لا يفنوا، ولما ولد موسى –في العام الذي يقتل فيه المواليد- أوحى الله إلى أمه أن ترضعه فإذا خافت عليه أن تلقيه في النهر، وألا تخاف ولا تحزن فإنه سيعيده إليها، فلما خافت عليه وضعته في صندوق خشبي وألقته في النهر، والتقطه جواري امرأة فرعون، فأحبته امرأة فرعون حبًا شديدًا، ولم يقبل الرضاعة من المرضعات، فبحثوا له عن مرضع، حتى أرضعته أمه وأعيد إليها.

ثم نشأ في قصر فرعون، ولما بلغ سن الشباب قتل رجلاً من قوم فرعون بالخطأ لما استنجده رجل إسرائيلي على الفرعوني، فأرادوا أن يقتلوه، ففر منهم إلى مدين، وسقى لامرأتين غنهما، فزوجه أبوهما إحداهما، ومكث عندهم عشر سنين.

إرسال موسى إلى فرعون وقومه

ثم أخذ موسى أهله وغنمه عائدًا إلى مصر، فرأى نارًا بجانب الطور، فأمر أهله أن يبقوا مكانهم، وذهب بمفرده جهة تلك النار، وأوحى الله إليه هناك، وكلمه، وأراه معجزتين بتحول عصاه إلى حية، وأنه إذا أدخل يده في جيب ثوبه ثم أخرجها تكون بيضاء كالبرق، وأمره أن يدعو بني إسرائيل وفرعون وقومه لعبادة الله واتباع أوامره، وأخبره أن يضع يده على صدره إن رهب شيئًا أو خاف منه؛ فيزول ذلك الخوف بإذن الله.

واستجاب الله سؤال موسى أن يبعث معه أخاه هارون، فكذب بهما فرعون وقومه، واتهموهما بالسحر، والرغبة في ملك مصر، والإفساد في الأرض، وجمعوا السحرة ليغلبوا موسى في يوم العيد وهو يوم عاشوراء، فنصر الله موسى عليهم، وألقى موسى عصاه فصارت ثعبانًا عظيمًا ابتلع حبال السحرة وعصيهم، وآمن السحرة فعذبهم فرعون، وكذّب هو وقومه بالآيات المعجزات، وأهلك الله قارون وخسف به وبداره الأرض، وعزم فرعون على قتل موسى واستئصال المؤمنين بقتلهم أو إخراجهم من مصر، وعرض ذلك على

مستشاريه، فنصحهم مؤمن من آل فرعون –يكتم إيمانه- ألا يفعلوا ذلك، لكن فرعون وملأه لم يقبلوا نصحه، وأنجاه الله منهم.

وخرج موسى ببني إسرائيل من مصر، وأخذوا معهم تابوت يوسف في ليلة عاشوراء وهو يوم الزينة عند قوم فرعون، ولما بلغ الخبرُ فرعونَ؛ جمع الجنود وخرج يتبعهم، وأدركهم عند البحر وقت شروق الشمس، وضرب موسى البحر بعصاه لما أمره الله؛ فانفلق في البحر اثنا عشر طريقًا سلكها موسى ومن معه، فلما وصلوا إلى البر من الجهة الأخرى؛ تبعهم فرعون وجنوده، فأغرقهم الله في يوم عاشوراء، ثم أخرج الله لهم جثة فرعون بعد هلاكه ليتيقنوا موته.

وبعد نجاتهم من فرعون رأوا قومًا يعبدون الأصنام فقالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا مثلهم، فبيّن لهم جهلهم، وأن الله ربهم، وأنزلهم منزلاً وأمرهم بطاعة أخيه هارون، وذهب لميقات ربه في ثلاثين ليلة، ثم زيدت عشرًا، وأنزل الله فيها عليه كتابه التوراة مكتوبًا في الألواح، وسأل موسى ربه رؤيته، فأخبره أنه لن يراه في الدنيا، وتجلى ربه للجبل فأصبح مدكوكًا، وصعق موسى، ثم أفاق وتاب. وفي غياب موسى عن قومه صنع لهم السامري صنمًا من حليهم وذهبهم على هيئة عجل، وجعل فيه جوفًا تمر منه الريح

فيصدر صوتًا مثل الخوار، وأمرهم السامري بعبادة العجل، ونهاهم هارون عن ذلك، فاستضعفوا هارون وكادوا أن يقتلوه، وأطاعوا السامري. ولما رجع موسى إلى بني إسرائيل ورآهم يعبدون العجل غضب عليهم وألقى الألواح وعاتب هارون، وحرّق العجل ونسفه في اليم.

ثم سألوا موسى أن يفتح الله لهم بابًا للتوبة، فاختار موسى منهم سبعين رجلاً لإتيان جبل الطور، فرجفت بهم الأرض، وكانت توبتهم أن يقتل بعضهم بعضًا، ففعلوا ببعضهم ثم عفي عنهم، وقالوا لن نؤمن حتى نرى الله جهرة، فصعقوا، ثم بعثهم الله من بعد موتهم.

وسار موسى بقومه إلى الأرض المقدسة، وأمرهم بالشرائع التي في التوراة فلم يقروا بها وثقلت عليهم، فنتق الله فوقهم جبل الطور كأنه سحابة، فخافوا أن يسقط عليهم فأخذوا الكتاب وسجدوا وهم ينظرون إلى الجبل.

وكانت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام في فتنة العِلم لما ظنَّ أنه أعلم الناس، فعَتَبَ اللهُ عليه، ودلّه على الخَضِر، فرحل

في طلب العلم عنده، ولم يستطع معه صبرًا، ونبّأه الخضِرُ بتأويل ما غاب عنه.

ولم يَسلَم موسى من إيذاء بني إسرائيل له، واتهموه بعيب في جسده لأنه كان حييًا لا يتعرى، فبرأه الله مما قالوا.

وقُتِل في بني إسرائيل رجل لم يعرفوا قاتله، فأخبرهم موسى أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، فأساؤوا الأدب مع موسى وتعنتوا بطلب المزيد من أوصاف البقرة وسنها ولونها وحالها فشدد الله عليهم، حتى وجدوها بعد مشقة وذبحوها، فأمرهم أن يضربوا قبر القتيل بشيء من لحمها، فقام من قبره وأخبرهم أن ابن أخيه هو الذي قتله ليرثه، ثم عاد ميتًا.

ولما اقتربوا من الأرض المقدسة علموا أن فيها قومًا عمالقة جبارين، وأمرهم موسى بقتالهم، وأن الله سينصرهم، فرفضوا قتالهم ودخول الأرض المقدسة، وأساؤوا الأدب مع ربهم ومع نبيهم، فغضب عليهم موسى ودعا عليهم، وسمّاهم فاسقين، وَحَرَّمَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ.

ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فِي التِّيهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لا تَبْلَى وَلا تَتَّسِخُ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا، وَأَمَرَ مُوسَى فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلاثَةُ أَعْيُنٍ، وَأَعْلَمَ كُلَّ سِبْطٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا، لا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَنْقَلَةٍ إِلَّا وُجِدَ ذَلِكَ الْحَجَرُ فِيهِمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالأَمْسِ. وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، فلم يشكروا وقالوا لن نصبر على طعام واحد، وتوفي هارون، ثم توفي موسى قريبًا مِنْ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وقَبْرُهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ.

بنو إسرائيل بعد موسى

ثم سار يوشع بن نون عليه السلام –وهو فتى موسى- ببني إسرائيل إلى بيت المقدس وقاتلوا معه وحبست له الشمس، وانتصروا، وأمروا أن يستغفروا ويدخلوا الباب سجدًا، لكنهم استهزؤوا وقالوا حنطة، وقالوا شعرة في شعيرة، ودخلوا يزحفون على أستاههم، فنزل على المستهزئين عذاب من السماء.

وكان الْقَيِّمُ بِأُمُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ يُوشَعَ؛ كَالِبُ بْنُ يُوفَنَّا - أَحَدَ أَصْحَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهِ مَرْيَمَ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِه حِزِقْيلَ بْنَ بُوذَى، وَهُوَ الَّذِي دَعَا اللَّهَ فَأَحْيَا الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ. ثم من بعدهم إِلْيَاسُ والْيَسَعُ وذو الْكِفْلِ عَلَيْهِم السَّلَامُ وغيرهم من الأنبياء والأقوام الذين أشير إليهم في القرآن الكريم.

قصة أصحاب الكهف

وكان أصحابُ الكهفِ فتيةً مِنْ أَبْنَاءِ مُلُوكِ الرُّومِ وَسَادَتِهِمْ، وَكَانَ قومُهم يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالطَّوَاغِيتَ، وَيَذْبَحُونَ لَهَا، وَكَانَ لَهُمْ مَلِكٌ جَبَّارٌ عَنِيدٌ يُقَالُ لَهُ: "دَقْيَانُوسُ"، وخَرَجُوا يَوْمًا فِي بَعْضِ أَعْيَادِ قَوْمِهِمْ، وَخَرَجَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ مَعَ آبَائِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، وَاسْتَنْكَروا مَا يَصْنَعُهُ قَوْمُهُمْ مِنَ السُّجُودِ لِأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْحِ لَهَا، فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَنْحَازُ مِنْهُمْ فِي نَاحِيَةً. فجَمَعَهُمْ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وتَوَافَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَصَارُوا يَدًا وَاحِدَةً وَإِخْوَانَ صِدْقٍ، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فِيهِ، فَعَرَفَ

بِهِمْ قَوْمُهُمْ، فَوَشَوْا بِأَمْرِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ بِالْحَقِّ، وَدَعَوْهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فأَبَى عَلَيْهِمْ، وتَهَدّدهم وَتَوَعَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِنَزْعِ لِبَاسِهِمْ عَنْهُمُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ قَوْمِهِمْ، وأجَّلهم لِيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يُرَاجِعُونَ دِينَهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ.

ولَكِنَّهم تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ، وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، وأَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ، وَدَخَلَ الْفِتْيَةُ الْكَهْفَ سَائِلِينَ اللَّهَ تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ، فصَبَّرهم اللهُ عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ، وَضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ فَنَامُوا، واللَّهُ يُقَلِّبُهُمْ وَيُحَوِّلُ الشَّمْسَ عَنْهُمْ، ورَبَضَ كَلْبُهُمْ عَلَى الْبَابِ كأنه يَحْرُسُهُمْ كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكِلَابِ خَارِجَ الْبَابِ، وَشَمَلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكَتُهُمْ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ؛ لِئَلَّا يَدْنُوَ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَمَسَّهُمْ يَدُ لَامِسٍ. فَجَاءَ أَهَالِيهِمْ يَطْلُبُونَهُمْ فَفَقَدُوهُمْ فَأَخْبَرُوا الْمَلِكَ، وتَطَلَّبهم الْمَلِكُ، فلَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ، وعَمَّى اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ. فَأَمَرَ بِكِتَابَةِ أَسْمَائِهِمْ فِي لَوْحٍ مِنْ رَصَاصٍ -وهو الرقيم- وَجَعَلَهُ فِي خِزَانَتِهِ.

ثُمَّ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَجَاءَ آخَرُ فَكَسَّرَ الْأَوْثَانَ وَعَبَدَ اللَّهَ وَعَدَلَ، فَبَعَثَ اللَّهُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ لَمْ يَفْقِدُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ شَيْئًا، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ؛ وَلِهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ: {كَمْ لَبِثْتُمْ}؟ أَيْ: كَمْ رَقَدْتُمْ؟، وكَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ فِي أَوَّلِ نَهَارٍ، وَاسْتِيقَاظُهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ؛ فقَالُوا: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}، ثم قَالُوا: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}.

وحصل احْتِيَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَأَرْسَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يَأْتِيهِمْ بِمَا يَأْكُلُونَ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ مُسْتَخْفِيًا فَرَأَى هَيْئَةً وَنَاسًا أَنْكَرَهُمْ لِطُولِ الْمُدَّةِ فَدَفَعَ دِرْهَمًا إِلَى خَبَّازٍ، فَاسْتَنْكَرَ ضَرْبَهُ، وَهَمَّ بِأَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ: أَتُخَوِّفُنِي بِالْمَلِكِ وَأَبِي دِهْقَانُهُ. فَقَالَ: من أَبوك؟! قَالَ: فُلَانٌ. فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَرَفَعُوهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِاللَّوْحِ، وَكَانَ قَدْ سَمِعَ بِهِ، فَسَمَّى أَصْحَابَهُ فَعَرَفَهُمْ مِنَ اللَّوْحِ، فَكَبَّرَ النَّاسُ.

وَانْطَلَقُوا إِلَى الْكَهْفِ، وَسَبَقَ الْفَتَى لِئَلَّا يَخَافُوا مِنَ الْجَيْشِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمْ؛ عَمَّى اللَّهُ عَلَى الْمَلِكِ وَمَنْ مَعَهُ الْمَكَانَ، فَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ ذَهَبَ الْفَتَى، فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَبْنُوا عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا، فَجَعَلُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُم وَيدعونَ لَهُم.

قصة أصحاب السبت

وكان أَهْلُ أَيْلَةَ -بَيْنَ مَدْيَنَ وَالطُّورِ- يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الِاصْطِيَادُ فِي السَّبْتِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الصَّنَائِعِ وَالتِّجَارَاتِ وَالْمَكَاسِبِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ تَأْتِي ظَاهِرَةً آمِنَةً مُسْتَرْسِلَةً فَلَا يُهَيِّجُونَهَا وَلَا يَذْعَرُونَهَا، {وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ}؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَصْطَادُونَهَا فِيمَا عَدَا السَّبْتِ.

فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ احْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِهَا فِي يَوْمِ السَّبْتِ، بِأَنْ نَصَبُوا الْحِبَالَ وَالشِّبَاكَ وَالشُّصُوصَ، وَحَفَرُوا الْحُفَرَ الَّتِي يَجْرِي مَعَهَا الْمَاءُ إِلَى مَصَانِعَ قَدْ أَعَدُّوهَا، إِذَا دَخَلَهَا السَّمَكُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَإِذَا جَاءَتِ الْحِيتَانُ مُسْتَرْسِلَةً يَوْمَ السَّبْتِ، عَلِقَتْ بِهَذِهِ الْمَصَايِدِ، فَإِذَا خَرَجَ سَبْتُهُمْ أَخَذُوهَا، فَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ؛ لَمَّا احْتَالُوا عَلَى خِلَافِ أَمْرِهِ، وَانْتَهَكُوا مَحَارِمَهُ بِالْحِيَلِ.

فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ افْتَرَقَ الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا فِرْقَتَيْنِ؛ فِرْقَةٌ أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ احْتِيَالَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَفِرْقَةٌ أُخْرَى لَمْ يَنصحُوا وَلَمْ يَنْهَوْا، واكتفوا بإنكار قلوبهم ذلك

الفعل، وَقَالُوا للناصحين: مَا الْفَائِدَةُ فِي نَهْيِكُمْ هَؤُلَاءِ وَقَدِ اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ؟، فَأَجَابَتْهُمُ الطَّائِفَةُ الناصِحةُ بِأَنْ قَالُوا: أُمِرْنَا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَنَقُومُ بِهِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ يَتْرُكُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ، فَيَقِيهِمُ اللَّهُ عَذَابَهُ وَيَعْفُو عَنْهُمْ إِذَا هُمْ رَجَعُوا وَاسْتَمَعُوا.

فلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مَنْ نَهَاهُمْ، فأنجى اللهُ {الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} وَهُمُ الْفِرْقَةُ الْآمِرَةُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَةُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخَذَ {الَّذِينَ ظَلَمُوا} وَهُمُ الْمُرْتَكِبُونَ المعصية الْفَاحِشَةَ {بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} وَهُوَ الشَّدِيدُ الْمُؤْلِمُ الْمُوجِعُ {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} وقال لَهُمْ: {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}. فأَهْلَكَ اللهُ الظَّالِمِينَ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ الْمُنْكِرِينَ بِلِسَانِهِمِ.

قصة طالوت وجالوت

وإن بني إسرائيل لَمَّا قَهَرَهُمُ الْأَعْدَاءُ، سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُنَصِّبَ لَهُمْ مَلِكًا يَكُونُونَ تَحْتَ طَاعَتِهِ؛ لِيُقَاتِلُوا مَعَهُ الْأَعْدَاءَ. فخشي عليهم ألا يَفُوا بما وعَدوا من القيام

بالجهاد، فأصروا وأجابوا بأنَّه لا شيء يحولُ بينهم وبين الجهاد في سبيل الله، وخاصة أنهم أُخرجوا من ديارهم، وسُبي أبناؤهم.

فلمَّا فرَض الله عليهم القتالَ؛ لمْ يفوا بالوعد! بل أدْبروا ناكلينَ عن الجهاد إلَّا عددًا قليلاً منهم.

ثمَّ أعلمهم نبيُّهم أنَّ الله قد أجابهم إلى ما طلَبوا، وعيَّن لهم طالوتَ ملِكًا عليهم، وكان طالوت رجلاً من عامَّتهم، لا ينتمي إلى سِبط ملوكِ بني إسرائيل، فاعترضوا على ذلك وقالوا: كيف يكون ملِكًا علينا وهو دُوننا في الشَّرف، وهو مع ذلك ليس من أصحاب الأموال، كما هو حال الملوك؟! فأخبرهم نبيُّهم أنَّ الله هو الذي اختاره لهم، واختصَّه مِن بينهم، وأعطاه زيادةً في العِلم، وطولَ قامةٍ، وقوَّةً في الجسد، ثم إنَّ المُلك لله وحْده يؤتيه مَن يشاء، وهُو أَعْلَمُ بمَن يَصْلُح للمُلك من غيره.

وقال لهم نبيُّهم إنَّ العلَامةَ الدالَّة على صحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليهم هي أن يُردَّ إليهم التابوتُ -الذي سُلِب منهم- حاويًا ما يُهدِّئ نفوسهم فتطمئنَّ به قلوبهم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من تَرِكة موسى وهارون عليهما السلام، يحمل هذا التابوتَ إليهم الملائكةُ عليهم السَّلام.

فلمَّا أَذعنوا أخيرًا لِمُلْك طالوت عليهم بعد أنْ جاءهم التابوت؛ انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم. فلمَّا جاوَزوا موطنهم في طريقهم إلى ملاقاة العدوِّ، أعلمهم طالوت أنَّ الله مختبرُهم بنَهَرٍ؛ ليُظهِر الكاذب من الصادق، وأَعلن طالوتُ براءتَه مِن كلِّ مَن يَشربُ منه، وأنَّه لن يَصحبَه مع الجيش إلى القِتال، وأنَّ مَن لم يَطْعَمه- إلَّا أن يَغترِفَ بكفِّه غرفةً واحدة- فإنَّه منه، فشَرِب معظمُهم، ولم يُطعِ الأمر إلا قليلٌ منهم ممَّن وفقهم الله تعالى وثبَّتهم.

فلمَّا تعدَّى طالوت النهر ومَن آمن معه، ممَّن أطاعوه ولم يشربوا من النهر أو شربوا غرفة واحدة- قال بعضُهم لَمَّا رأَوا كثرة أعدائهم: لا قُدرةَ لنا هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ فحينها قال لهم الموقِنون: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلة الجماعةَ الكثيرة! وذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ فلا تفيد الكثرةُ مَن خَذَله الله، ولا تضرُّ القِلَّةُ مَن وفَّقه الله، والله سبحانه مع الصَّابرين.

ولَمَّا ظهَر المؤمنون لجالوتَ وجُنودِه، دعو ربَّهم أن يُلهِمَهم الصَّبر، ويثبِّت أقدامَهم، وأنْ ينصرَهم على أهل الكفر، فاستجاب الله دُعاءَهم، وغلَب المؤمنون عدوَّهم، وكان داودُ عليه السلام من

جنود طالوت، فسلَّطه اللهُ على جالوت فقتله، وأعطا الله داودَ المُلكَ والنبوَّة وآتاه من العِلم ما يشاء سبحانه.

داود عليه السلام

وكَانَ دَاوُدُ - عليه السلام - أَعْبَدَ الْبَشَرِ، وأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ؛ صِيَامُ دَاوُدَ - عليه السلام - كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ.

وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ على داود لِثَمَانِ عَشْرَةَ ليلة خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وخفف على داود قراءته، فكان ما بين أن يسرج دابته على أن يركبها يقرأ قرآنه وهو (الزبور).

وآتى اللهُ داوودَ نبوة وملكًا، وقوى ملكه بما وهبه من الهيبة والنصر، وجعله ذا قوة على مقارعة أعدائه والصبر على طاعة الله، وأعطاه الحكمة والفصل في الكلام والحُكْم. وجعل الجبال والطير ترجّع معه التسبيح، وصيّر له الحديد ليِّنًا ليصنع منه ما يشاء من

أدوات، وعلمه الله أن يصنع دروعًا واسعة تقي مقاتليه بأس عدوّهم، ويُصيّر المسامير مناسبة للحِلَق فلا تكون دقيقة بحيث لا تستقرّ فيها، ولا غليظة بحيث لا تدخل فيها.

وإِنَّ لُقْمَانَ كَانَ عِنْدَ دَاوُدَ وَهُوَ يَسْرُدُ الدِّرْعَ، فَجَعَلَ يَفْتِلُهُ بِيَدِهِ، ولُقْمَانُ يَتَعَجَّبُ وَيُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ، وَتَمْنَعُهُ حِكْمَتُهُ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا؛ صَبَّهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: نِعْمَ دِرْعُ الْحَرْبِ هَذِهِ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ، كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ؛ فَسَكَتُّ حَتَّى كَفَيْتَنِي.

سليمان عليه السلام

ووُهِبَ لداود ابنُه سليمان إنعامًا من الله عليه وتفضلاً لتقر عينه به، وكان سليمانُ كثير التوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه.

ورُفِعَت لداود وابنه سليمان عليهما السلام قضية بشأن خصمين؛ لأحدهما غنم انتشرت ليلاً في حَرْث (زرع) الآخر فأفسدته، وكَانَ حَرْثُهُمْ عِنَبًا، فَقَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لَهُمْ، فَمَرُّوا عَلَى

سُلَيْمَانَ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَا، وَلَكِنْ أَقْضِي بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْغَنَمَ فَيَكُونَ لَهُمْ لَبَنُهَا وَصُوفُهَا وَمَنْفَعَتُهَا، وَيَقُومُ هَؤُلَاءِ عَلَى حَرْثِهِمْ حَتَّى إِذَا عَادَ كَمَا كَانَ؛ رَدُّوا عَلَيْهِمْ غَنَمَهُمْ.

وخَرَجَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا صَبِيَّانِ لَهُمَا، فَعَدَا الذِّئْبُ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ وَلَدَهَا. فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ، وَقَالَتْ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ - عليه السلام - فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عليه السلام - فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَقْطَعُهُ بَيْنَكُمَا نِصْفَيْنِ، لِهَذِهِ نِصْفٌ، وَلِهَذِهِ نِصْفٌ، فَقَالَتْ الْكُبْرَى: نَعَمْ، اقْطَعُوهُ، وَقَالَتْ الصُّغْرَى: لَا تَقْطَعْهُ يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا. فَقَالَ: هُوَ ابْنُكِ. فَقَضَى بِهِ لِلَّتِي أَبَتْ أَنْ يَقْطَعَهُ.

وورِثَ سليمانُ أباهُ داودَ في النبوة والعلم والملك، وقال متحدثًا بنعمة الله عليه وعلى أبيه: يا أيها الناس، عَلَّمنا الله فهم أصوات الطير، وأعطانا من كل شيء أعطاه الأنبياء والملوك. وكَانَ لِنَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عليه السلام - مِائَةُ امْرَأَةٍ. فَقَالَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي، فَلَتَحْمِلْنَّ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ وَلَتَلِدَنَّ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ

وَنَسِيَ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِنِصْفِ إِنْسَانٍ.

وعرضت عليه عصرًا الخيول الأصيلة السريعة، تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، فلم تزل تُعْرض عليه تلك الخيول الأصيلة حتى غربت الشمس. فقال سليمان: إني آثرت حب المال -ومنه هذه الخيل- على ذكر ربي حتى غابت الشمس وتأخرتُ عن صلاة العصر، ردوا علي هذه الخيل. فردوها عليه، فبدأ يضرب بالسيف سوقها وأعناقها ويذبحها تقربًا لله.

ولما فرغ سليمان بن داود عليه السلام من بناء بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: سأل الله حكمًا يصادف حكمه؛ فأعطاه الله إياه. وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأعطاه إياه. وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه؛ أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه. قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة.

وطوّع الله لسليمان الريح شديدة الهبوب تجري بأمره إذا أمرها إلى أرض الشام. تسير في الصباح مسافة شهر، وتسير في المساء مسافة شهر، وتنقاد بأمره لينة لا زعزعة فيها مع قوتها وسرعة

جريها، تحمله حيث أراد. وسيّل اللهُ له عين النحاس ليصنع من النحاس ما يشاء، وسخر له من الجن من يعمل بين يديه بأمر ربه، وذلل له الشياطين يأتمرون بأمره، فمنهم البناؤون يعملون له ما أراد من مساجد للصلاة ومن قصور، وما يشاء من صور، وما يشاء من قصاع مثل حياض الماء الكبيرة، وقدور الطبخ الثابتات فلا يُحَرَّكْنَ لِعِظَمِهِن، ومنهم الغواصون الذين يغوصون في البحار، فيستخرجون الدرر منها، والذي يميل من الجن عمَّا أُمِر به من العمل يناله عذاب أليم.

ومن الشياطين أيضًا مردة سُخِّروا له، فهم بأمره موثقون في الأغلال لا يستطيعون التحرك. وقيل له: يا سليمان، هذا عطاؤنا الذي أعطيناكه استجابة لما طلبت منا، فأعط من شئت، وامنع من شئت، فلن تحاسب في إعطاء أو منع. وقيل: اعملوا - يا آل داود - شكرًا لله على ما أنعم به عليكم، وقليل من عباد الله هم الشكورون على ما أنعم الله عليهم.

وجُمِع لسليمان جنوده من البشر والجن والطير، فهم يُسَاقون بنظام، حتَّى إذا جاؤوا إلى وادي النمل (موضع بالشام) قالت نملة من النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم؛ حتَّى لا يهلككم

سليمان وجنوده وهم لا يعلمون بكم، إذ لو علموا بكم لما داسوكم. فلما سمع سليمان كلامها تبسّم ضاحكًا من قولها هذا، وقال داعيًا ربه سبحانه: ربّ وفقني وألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والديَّ، ووفقني أن أعمل عملاً صالحًا ترتضيه، وأدخلني برحمتك في جملة عبادك الصالحين. وتعَهَّد سليمان الطيرَ وتفقّدهم فلم ير الهدهد، فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ أمنعني من رؤيته مانع؟ أم كان من الغائبين؟، فلما تبين له غيابه؛ قال: لأعذبنّه عذابًا شديدًا، أو لأذبحنّه عقابًا له على غيابه، أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره في الغياب.

فمكث الهدهد في غيابه زمنًا غير بعيد، فلما جاء قال لسليمان عليه السلام: اطلعتُ على ما لم تطلع عليه، وجئتك من أهل سبأ بخبر صادق لا شك فيه. إني وجدت امرأة تحكمهم، وأُعطِيت هذه المرأة من كل شيء من أسباب القوة والملك، ولها سرير عظيم تدير مِن عليه شؤون قومها. وقد وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله سبحانه وتعالى، وحسَّن لهم الشيطان ما هم عليه من أعمال الشرك والمعاصي، فصرفهم عن طريق الحق، فهم لا يهتدون إليه. وأضلهم لئلا يسجدوا لله الَّذي

يُخْرِج ما ستره في السماء من المطر، وفي الأرض من النبات، ويعلم ما يخفيه الناس من الأعمال وما يظهرونه، لا يخفى عليه من ذلك شيء. الله الذي لا معبود بحق غيره، وهو رب العرش العظيم.

فقال سليمان عليه السلام للهدهد: سننظر أصدقت فيما تدعيه عن مملكة سبأ، أم كنت من الكاذبين. ثم كتب سليمان كتابًا، وسلمه للهدهد، وقال له: اذهب بكتابي هذا فارمه إلى أهل سبأ وسلّمهم إياه، وتنحّ عنهم جانبًا بحيث تسمع ما يرددون بشأنه.

واستلمت الملكة (بلقيس) الكتاب، وقالت: يا أيها الأشراف إني ألقي إلي كتاب كريم جليل. مضمون هذا الكتاب المرسل من سليمان المفتتح بـ "بسم الله الرحمن الرحيم": ألا تتكبروا، وأتوني منقادين مستسلمين لما أدعوكم إليه من توحيد الله وترك ما أنتم عليه من الشرك به، حيث عبدتم الشمس. ثم قالت الملكة: يا أيها الأشراف والسادة، بيِّنوا لي وجه الصواب في أمري، ما كنت قاضية أمرًا حتَّى تَحضروني، وتظهروا رأيكم فيه. فقال لها الأشراف من قومها: نحن أصحاب قوة عظيمة، وأصحاب بأس قوي في الحرب، والرأي ما ترينه فانظري ماذا تأمريننا به فنحن قادرون على تنفيذه. قالت الملكة: إن الملوك إذا دخلوا قرية من

القرى أفسدوها بما يقومون به من القتل والسَّلْب والنَّهْب، وصيَّروا سادتها وأشرافها أذلاء بعد ما كانوا فيه من العزة والمنعة، وكذلك يفعل الملوك دائمًا إذا تغلبوا على أهل قرية؛ ليزرعوا الهيبة والرعب في النفوس. وإني مرسلة إلى صاحب الكتاب وقومه هدية، وأنظر ماذا تأتي به الرسل بعد إرسال هذه الهدية.

فلما جاء رسولها ومن معه يحملون الهدية إلى سليمان أنكر عليهم سليمان إرسال الهدية قائلاً: أتمدونني بالأموال لتثنوني عنكم، فما أعطاني الله من النبوة والملك والمال خير مما أعطاكم، بل أنتم الذين تفرحون بما يُهْدَى إليكم من حطام الدنيا. ثم قال سليمان عليه السلام لرسولها: ارجع إليهم بما جئت من هدية، فلنأتينها وقومها بجنود لا طاقة لهم بمواجهتهم، ولنخرجنهم من سبأ وهم أذلة مهانون بعد ما كانوا فيه من العزة إن لم يأتوني منقادين.

وقال سليمان عليه السلام مخاطبًا أعيان أهل ملكه: يا أيها الملأ، أيكم يأتيني بسرير ملكها قبل أن يأتوني منقادين؟، فأجابه مارد من الجن قائلاً: أنا آتيك بسريرها قبل أن تقوم من مجلسك هذا الَّذي أنت فيه، وإني لقوي على حمله أمين على ما فيه، فلن أنقص منه شيئًا. وقال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك بسريرها قبل أن

ترمش عينك؛ فلما رأى سليمان سريرها مستقرًّا عنده قال: هذا من فضل ربي سبحانه؛ ليختبرني أأشكر نعمه أم أكفرها؟ ومن شكر الله فإنما نَفْع شكره عائد إليه، فالله غني لا يزيده شكر العباد، ومن جحد نعم الله فلم يشكره له فإن ربي غني كريم.

ثم قال سليمان عليه السلام: غيِّروا لها سرير ملكها عن هيئته التي كان عليها ننظر: هل تهتدي إلى معرفة أنَّه سريرها، أم تكون من الذين لا يهتدون إلى معرفة أشيائهم؟ فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان قيل لها اختبارًا لها: أهذا مثل عرشك؟ فأجابت طبق السؤال: كأنه هو. ثم قيل لها: ادخلي الصرح -وهو كهيئة السطح-، فلما رأته ظنته ماءً فكشفت عن ساقيها لتخوضه، قال سليمان عليه السلام: إنه صرح مُمَلَّس من زجاج، ودعاها إلى الإسلام، فأجابته إلى ما دعاها إليه قائلة: رب إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك معك، وانقدت مسلمة مع سليمان لله رب المخلوقات جميعها.

ولما مات سليمان عليه السلام مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ -وَهِيَ مِنْسَأَتُه- مُدَّةً طَوِيلَةً لم تحدد، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دابةُ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَرَضَةُ، ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَعُلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ

بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ فتَبَيَّنَتِ الْجِنُّ -وَالْإِنْسُ أَيْضًا- أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهِمُونَ النَّاسَ ذلك؛ إذ لو كانوا يعلمونه لما مكثوا في العذاب المذلّ لهم، من الأعمال الشاقة التي يعملونها لسليمان عليه السلام ظنًّا منهم أنه حيٌّ يراقبهم أو أنه في غفوة أو سِنَةٍ من النوم.

وإنَّ اليهودَ لما نبذوا كتاب الله تعالى، وانحرفوا عن عبادة الله وحده، ابتلوا بعبادة الشياطين والتقرب إليهم بالكفر وتعلم السحر منهم، واتبعوا ما تدعيه الشياطين التي كفرت وعَلَّمت الناسَ السحرَ، وادّعت اليهود أن سليمان كان ساحرًا وأن ملكه قام على السحر، والحقيقة أن سليمان -عليه السلام- لم يكن ساحرًا ولم يكفر، بل كان نبيًا صالحًا آتاه الله ملكاً عظيمًا، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بتعلّم وتعليم الناس السحر. كما ادعى اليهود كذلك أن سليمان بنى هيكلاً مزعومًا، وإنما الذي بناه سليمان هو مسجد بيت المقدس -كما تقدم-.

يونس عليه السلام

وبَعَثَ اللَّهُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَى أَهْلِ نِينَوَى؛ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وزيادة، فَكَذَّبُوهُ وَتَمَرَّدُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ مَنْ أَمْرِهُمْ، خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَوَعَدَهُمْ حُلُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ.

فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَيْهِمْ وَتَحَقَّقُوا نُزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَى نَبِيِّهِمْ، فَلَبِسُوا الْمُسُوحَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلَدِهَا، ثُمَّ عَجُّوَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصَرَخُوا وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، وَتَمَسْكَنُوا لَدَيْهِ، وَبَكَى الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْبَنُونَ وَالْبَنَاتُ، وَالْأُمَّهَاتُ، وَجَأَرَتِ الْأَنْعَامُ وَالدَّوَابُّ وَالْمَوَاشِي، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُصْلَانُهَا، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَحُمْلَانُهَا، وَكَانَتْ سَاعَةً عَظِيمَةً هَائِلَةً، فَكَشَفَ اللَّهُ الْعَظِيمُ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي كَانَ قَدِ اتَّصَلَ بِهِمْ بِسَبَبِهِ.

وَلَمَّا ذَهَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُغَاضِبًا بِسَبَبِ قَوْمِهِ؛ ظَنَّ أَنْ لَنْ يُضَيِّقَ اللهُ عَلَيْهِ، وركِبَ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ، فَلَجَّتْ بِهِمْ وَاضْطَرَبَتْ،

وَمَاجَتْ بِهِمْ وَثَقُلَتْ بِمَا فِيهَا، وَكَادُوا يَغْرَقُونَ، فَتَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَرِعُوا، فَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ أَلْقَوْهُ مِنَ السَّفِينَةِ؛ لِيَتَخَفَّفُوا مِنْهُ.

فَلَمَّا اقْتَرَعُوا وَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ، فَلَمْ يَسْمَحُوا بِهِ، فَأَعَادُوهَا ثَانِيَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا، فَشَمَّرَ لِيَخْلَعَ ثِيَابَهُ وَيُلْقِيَ بِنَفْسِهِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَعَادُوا الْقُرْعَةَ ثَالِثَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا؛ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، ولَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، أُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ، وَبَعَثَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، حُوتًا عَظِيمًا فَالْتَقَمَهُ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ -ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ، وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ-: {لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كنت من الظَّالِمين}، فلَوْلَا أَنَّهُ سَبَّحَ اللَّهَ هُنَالِكَ، وَقَالَ مَا قَالَ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ، وَالِاعْتِرَافِ لِلَّهِ بِالْخُضُوعِ، وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، لَلَبِثَ هُنَالِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَبُعِثَ مِنْ جَوْفِ ذَلِكَ الْحُوتِ.

وكَانَ مِنْ قَبْلِ أَخْذِ الْحُوتِ لَهُ مِنَ الْمُسَبِّحِينِ الْمُطِيعِينَ الْمُصَلِّينَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا. فألقاه الحوت بِالْعَرَاءِ وَهُوَ الْمَكَانُ الْقَفْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْجَارِ، بَلْ هُوَ عَارٍ مِنْهَا، وَهُوَ ضَعِيفُ

الْبَدَنِ. وَأَنْبَتَ اللهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وهي شَجَرَةُ الْقَرْعُ (الدُّبَّاءِ).

وفِي إِنْبَاتِ الْقَرْعِ عَلَيْهِ حِكَمٌ جَمَّةٌ؛ مِنْهَا أَنَّ وَرَقَهُ فِي غَايَةِ النُّعُومَةِ، وَكَثِيرٌ وَظَلِيلٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ ذُبَابٌ، وَيُؤْكَلُ ثَمَرُهُ مِنْ أَوَّلِ طُلُوعِهِ إِلَى آخِرِهِ، نِيئًا وَمَطْبُوخًا، وَبِقِشْرِهِ وَبِبِزْرِهِ أَيْضًا، وَفِيهِ نَفْعٌ كَثِيرٌ، وَتَقْوِيَةٌ لِلدِّمَاغِ.

ولمّا طُرِحَ يُونُسُ بِالْعَرَاءِ؛ هَيَّأَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ أَرْوِيَةً (أنثى الوعل) وَحْشِيَّةً تَأْكُلُ مِنْ حَشِيشِ الأَرْضِ، فَتَجِيءُ، فَتَفْشِجُ لَهُ (تباعد بين رجليها)، وَتَرْوِيهِ مِنْ لَبَنِهَا كُلَّ عَشِيَّةٍ وبُكْرَةٍ، حَتَّى نَبَتَ. وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ.

ومَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؛ أَصَابَ ذَنْبًا، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ. ونِعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ {لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كنت من الظَّالِمين} فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا اسْتَجَابَ لَهُ.

قتل النبي شِعْيَا بْنُ أَمْصِيَا

وكان شِعْيَا بْنُ أَمْصِيَا من أنبياء بني إسرائيل ومِمَّنْ بَشَّرَ بِعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ مَلِكٌ اسْمُهُ (صَدِيقَةُ) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِبِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ سَامِعًا مُطِيعًا لِشِعْيَا فِيمَا يَأْمُرُهُ بِهِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَمَرِضَ الْمَلِكُ وَخَرَجَتْ فِي رِجْلِهِ قُرْحَةٌ، وَقَصَدَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مَلِكُ بَابِلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ -وَهُوَ سَنْحَارِيبُ- بجيش عظيم.

وَفَزِعَ النَّاسُ فَزَعًا عَظِيمًا شَدِيدًا، ثُمَّ نَزَلَ عَلَى شِعْيَا الْوَحْيُ بِالْأَمْرِ لِلْمَلِكِ صَدِيقَةَ بِأَنْ يُوصِيَ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى مُلْكِهِ مَنْ يَشَاءُ؛ فَإِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ أَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى وَسَبَّحَ وَدَعَا وَبَكَى، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَرَحِمَهُ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى شِعْيَا أَنْ يُبَشِّرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ رَحِمَ بُكَاءَهُ، وَقَدْ أَخَّرَ فِي أَجَلِهِ، وَأَنْجَاهُ مِنْ عَدُوِّهِ سَنْحَارِيبَ. فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ ذَهَبَ مِنْهُ الْوَجَعُ وَانْقَطَعَ عَنْهُ الشَّرُّ وَالْحُزْنُ، وَخَرَّ سَاجِدًا. فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى شِعْيَا أَنْ يَأْمُرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَاءَ التِّينِ فَيَجْعَلَهُ عَلَى قُرْحَتِهِ، فَيَشْفَى وَيُصْبِحَ قَدْ بَرِئَ. فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَشُفِيَ.

وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى جَيْشِ سَنْحَارِيبَ الْمَوْتَ فَأَصْبَحُوا وَقَدْ هَلَكُوا كُلُّهُمْ سِوَى سَنْحَارِيبَ وَخَمْسَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، مِنْهُمْ بُخْتُ نَصَّرَ. فَأَرْسَلَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَاءَ بِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ فِي الْأَغْلَالِ وَطَافَ بِهِمْ فِي الْبِلَادِ عَلَى وَجْهِ التَّنْكِيلِ بِهِمْ وَالْإِهَانَةِ لَهُمْ سَبْعِينَ يَوْمًا، وَيُطْعِمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَوْدَعَهُمُ السِّجْنَ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى شِعْيَا أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكَ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ مَا قَدْ حَلَّ بِهِمْ، ثُمَّ مَاتَ سَنْحَارِيبُ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ.

ولَمَّا مَاتَ صَدِيقَةُ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ كَثُرَ شَرُّهُمْ، وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَنَافَسُوا عَلَى الْمُلْكِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى شِعْيَا، فَقَامَ فِيهِمْ فَوَعَظَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ بَأْسَ اللهِ وَعِقَابَهُ إِنْ خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ عَدَوْا عَلَيْهِ وَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ، فَمَرَّ بِشَجَرَةٍ فَانْفَلَقَتْ لَهُ فَدَخَلَ فِيهَا، وَأَدْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ بِهُدْبَةِ ثَوْبِهِ فَأَبْرَزَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ جَاءُوا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعُوهُ عَلَى الشَّجَرَةِ، فَنَشَرُوهَا وَنَشَرُوهُ مَعَهَا، وكذبوا إرميا النبي وَجَرَحُوهُ وَحَبَسُوهُ.

الخراب الأول لبيت المقدس

فحصل الْخَرَابُ الْأَوَّلُ لبيت المقدس لَمَّا جَاءَ بُخْتُنَصَّرُ في عهد إرميا النبي، ودانيال، وحنانيا، وعزاريا، وميشائيل، فغزاهم بُخْتُنَصَّرُ وخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَمَرَ أَنْ تُطْرَحَ فِيهِ الْجِيَفُ، وَأَتْبَعَهُمْ إِلَى مِصْرَ. وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَسَبَاهُمْ إِلَى بَابِلَ، وَكَانَ مِنْ أُولَئِكَ دَانْيَالُ النَّبِيُّ، وَحَنَانِيَا، وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلُ، وَبَقِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَرَابًا سَبْعِينَ سَنَةً.

والْأَنْبِيَاءَ أَخْبَرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِحْدَاثِ، وَمَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَهُمْ وَيُخَرِّبُونَ بِلَادَهُمْ وَيَسْبُونَهُمْ. وَقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا. إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}.

قصة بختنصر مع دانيال عليه السلام

ثُمَّ عَادَ بُخْتُنَصَّرُ إِلَى بَابِلَ وَأَقَامَ فِي سُلْطَانِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُقِيمَ. ثُمَّ رَأَى رُؤْيَا، فَبَيْنَمَا هُوَ قَدْ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى إِذْ رَأَى شَيْئًا أَنْسَاهُ مَا رَأَى، فَدَعَا دَانْيَالَ، وَحَنَانِيَا، وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلَ، وَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا فَأُنْسِيتُهَا. وَلَئِنْ لَمْ تُخْبِرُونِي بِهَا وَبِتَأْوِيلِهَا لَأُنْزِعَنَّ أَكْتَافَكُمْ! فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَدَعَوُا اللَّهَ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ وَسَأَلُوهُ أَنْ يُعْلِمَهُمْ إِيَّاهَا، فَأَعْلَمَهُمُ الَّذِي سَأَلَهُمْ عَنْهُ، فَجَاءُوا إِلَى بُخْتُنَصَّرَ فَقَالُوا رَأَيْتَ تِمْثَالًا. قَالَ: صَدَقْتُمْ. فَمَا تَأْوِيلُهَا؟، قَالَ دَانْيَالُ: " أَنْتَ الرَّأْسُ الَّذِي رَأَيْتَهُ مِنَ الذَّهَبِ، وَيَقُومُ بَعْدَكَ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ رَأَيْتَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَهُمَا دُونَكَ، وَيَقُومُ بَعْدَهُمَا مَمْلَكَةٌ أُخْرَى هِيَ دُونَهُمَا، وَهِيَ شِبْهُ النُّحَاسِ، وَالْمَمْلَكَةُ الرَّابِعَةُ تَكُونُ قَوِيَّةً مِثْلَ الْحَدِيدِ الَّذِي يَدُقُّ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَمَّا الرِّجْلَانِ الَّتِي رَأَيْتَ مِنْ خَزَفٍ فَمَمْلَكَةٌ ضَعِيفَةٌ وَكَلِمَتُهَا مُشَتَّتَةٌ، وَأَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي رَأَيْتَ قَدْ صَكَّ ذَلِكَ الصَّنَمَ الْعَظِيمَ

فَفَتَّتَهُ فَهُوَ نَبِيٌّ يُقِيمُهُ اللَّهُ إِلَهُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ قَبِيلَةٍ بِشَرِيعَةٍ قَوِيَّةٍ، فَيَدُقُّ جَمِيعَ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَمِهَا، حَتَّى تَمْتَلِئَ مِنْهُ الْأَرْضُ وَمِنْ أُمَّتِهِ، وَيَدُومُ سُلْطَانُ ذَلِكَ النَّبِيِّ إِلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا، فَهَذَا تَعْبِيرٌ عَنْ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ". فَقَالَ بُخْتُ نَصَّرُ: صَدَقَ.

فَلَمَّا عَبَرَ دَانْيَالُ وَمَنْ مَعَهُ رُؤْيَا بُخْتُنَصَّرَ قَرَّبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي أَمْرِهِ، فَحَسَدَهُمْ أَصْحَابُهُ، وَسَعَوْا بِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَالُوا عَنْهُمْ مَا أَوْحَشَهُ مِنْهُمْ، فَحَفَرَ لَهُمْ أُخْدُودًا وَأَلْقَاهُمْ فِيهِ، وَهُمْ سِتَّةُ رِجَالٍ، وَأَلْقَى مَعَهُمْ سَبُعًا ضَارِيًا لِيَأْكُلَهُمْ، فَلَمْ يَخْدِشْ مِنْهُمْ أَحَدًا.

وَقِيلَ فِي سَبَبِ موت بختنصر إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ عَلَيْهِ بَعُوضَةً فَدَخَلَتْ فِي مِنْخَرِهِ وَصَعِدَتْ إِلَى رَأْسِهِ، فَكَانَ لَا يَقَرُّ وَلَا يَسْكُنُ حَتَّى يُدَقَّ رَأْسُهُ، إلى أن مات، وَأَمَّا دَانْيَالُ فَإِنَّهُ أَقَامَ بِأَرْضِ بَابِلَ، وَانْتَقَلَ عَنْهَا، وَمَاتَ وَدُفِنَ بِالسُّوسِ فِي خُوزِسْتَانَ.

عودة بني إسرائيل إلى بيت المقدس

ثُمَّ فِي عَهْدِ «كيرش بن أخشويرش» -مَلِك بابل- عَادَ بنو إسرائيل إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وكانت عِمَارَتُهُ آنذاك. ثُمَّ مِنْ بَعْدِ

عِمَارَتِهِ إِلَى ظُهُورِ الإسكندر على بيت الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ مَمْلَكَةِ الْإِسْكَنْدَرِ إِلَى مَوْلِدِ يَحْيَى بن زكريا ثَلَاثَمَائَةٍ وَثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً.

قصة عُزَيْر عليه السلام

وكَانَ عُزَيْرٌ عَبْدًا صَالِحًا حَكِيمًا خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ يَتَعَاهَدُهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ انْتَهَى إِلَى خَرِبَةٍ (قيل أنها بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر) حِينَ قَامَتِ الظَّهِيرَةُ وَأَصَابَهُ الْحَرُّ، وَدَخَلَ الْخَرِبَةَ وَهُوَ عَلَى حِمَارِهِ، فَنَزَلَ عَنْ حِمَارِهِ وَمَعَهُ سَلَّةٌ فِيهَا تِينٌ، وَسَلَّةٌ فِيهَا عِنَبٌ، فَنَزَلَ فِي ظِلِّ تِلْكَ الْخَرِبَةِ وَأَخْرَجَ قَصْعَةً مَعَهُ، فَاعْتَصَرَ مِنَ الْعِنَبِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ فِي الْقَصْعَةِ، ثُمَّ أَخْرَجَ خُبْزًا يَابِسًا مَعَهُ، فَأَلْقَاهُ فِي تِلْكَ الْقَصْعَةِ فِي الْعَصِيرِ؛ لِيَبْتَلَّ لِيَأْكُلَهُ، ثُمَّ اسْتَلْقَى عَلَى قَفَاهُ وَأَسْنَدَ رِجْلَيْهِ إِلَى الْحَائِطِ فَنَظَرَ سَقْفَ تِلْكَ الْبُيُوتِ وَرَأَى مَا فِيهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَقَدْ بَادَ أَهْلُهَا، وَرَأَى عِظَامًا بَالِيَةً فَقَالَ: {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِيهَا وَلَكِنْ قَالَهَا تَعَجُّبًا، فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكَ الْمَوْتِ، فَقَبَضَ رُوحَهُ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ

عَامٍ، فَلَمَّا أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَةُ عَامٍ، وَكَانَتْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمُورٌ وَأَحْدَاثٌ.

فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَى عُزَيْرٍ مَلَكًا فَخَلَقَ قَلْبَهُ لِيَعْقِلَ بِهِ، وَعَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا؛ فَيَعْقِلَ كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، ثُمَّ رَكَّبَ خَلْقَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ، ثُمَّ كَسَى عِظَامَهُ اللَّحْمَ، وَالشَّعْرَ، وَالْجِلْدَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، كُلُّ ذَلِكَ وَهُوَ يَرَى وَيَعْقِلُ، فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: {كَمْ لَبِثْتَ}، قَالَ: {لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ نَامَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ، وَبُعِثَ فِي آخِرِ النَّهَارِ وَالشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ، فَقَالَ: أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وَلَمْ يَتِمَّ لِي يَوْمٌ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: {بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ} يَعْنِي الْخُبْزَ الْيَابِسَ، وَالْعَصِيرَ الَّذِي كَانَ اعْتَصَرَ فِي الْقَصْعَةِ، فَإِذَا هُمَا عَلَى حَالِهِمَا لَمْ يَتَغَيَّرِ الْعَصِيرُ وَالْخُبْزُ يَابِسٌ، وَكَذَلِكَ التِّينُ وَالْعِنَبُ غَضٌّ لَمْ يَتَغَيَّرْ، فَكَأَنَّهُ أَنْكَرَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: أَنْكَرْتَ مَا قُلْتُ لَكَ؟ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ. فَنَظَرَ فَإِذَا حِمَارُهُ قَدْ بَلِيَتْ عِظَامُهُ وَصَارَتْ نَخِرَةً، فَنَادَى الْمَلَكُ عِظَامَ الْحِمَارِ، فَأَجَابَتْ وَأَقْبَلَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ حَتَّى رَكَّبَهُ الْمَلَكُ، وَعُزَيْرٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَلْبَسَهَا الْعُرُوقَ وَالْعَصَبَ، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّحْمَ، ثُمَّ أَنْبَتَ عَلَيْهَا الْجِلْدَ وَالشَّعْرَ، ثُمَّ نَفَخَ

فِيهِ الْمَلَكُ، فَقَامَ الْحِمَارُ رَافِعًا رَأْسَهُ وَأُذُنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، نَاهِقًا يَظُنُّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

فَرَكِبَ حِمَارَهُ حَتَّى أَتَى مَحِلَّتَهُ فَأَنْكَرَهُ النَّاسُ، وَأَنْكَرَ النَّاسَ، وَأَنْكَرَ مَنَازِلَهُمْ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَهَمٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ، فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَمْيَاءَ مُقْعَدَةٍ قَدْ أَتَى عَلَيْهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، كَانَتْ أَمَةً لَهُمْ، فَخَرَجَ عَنْهُمْ عُزَيْرٌ وَهِيَ بِنْتُ عِشْرِينَ سَنَةً، كَانَتْ عَرَفَتْهُ وَعَقَلَتْهُ، فَقَالَ لَهَا عُزَيْرٌ: يَا هَذِهِ أَهَذَا مَنْزِلُ عُزَيْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هَذَا مَنْزِلُ عُزَيْرٍ. فَبَكَتْ وَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ كَذَا وَكَذَا سَنَةٍ يَذْكُرُ عُزَيْرًا وَقَدْ نَسِيَهُ النَّاسُ. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عُزَيْرٌ، كَانَ اللَّهُ أَمَاتَنِي مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَنِي.

قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ! فَإِنَّ عُزَيْرًا قَدْ فَقَدْنَاهُ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ، فَلَمْ نَسْمَعْ لَهُ بِذِكْرٍ. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عُزَيْرٌ. قَالَتْ: فَإِنَّ عُزَيْرًا رَجُلٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ، يَدْعُو لِلْمَرِيضِ وَلِصَاحِبِ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ وَالشِّفَاءِ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصَرِي حَتَّى أَرَاكَ، فَإِنْ كُنْتَ عُزَيْرًا عَرَفْتُكَ. قَالَ: فَدَعَا رَبَّهُ وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى عَيْنَيْهَا فَصَحَّتَا وَأَخَذَ بِيَدِهَا

وَقَالَ: قُومِي بِإِذْنِ اللَّهِ. فَأَطْلَقَ اللَّهُ رِجْلَيْهَا فَقَامَتْ، فَنَظَرَتْ فَقَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّكَ عُزَيْرٌ.

وَانْطَلَقَتْ إِلَى مَحِلَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمْ فِي أَنْدِيَتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ، وَابْنٌ لِعُزَيْرٍ شَيْخٌ ابْنُ مِائَةِ سَنَةٍ وَثَمَانِي عَشْرَ سَنَةً وَبَنُو بَنِيهِ شُيُوخٌ فِي الْمَجْلِسِ، فَنَادَتْهُمْ فَقَالَتْ: هَذَا عُزَيْرٌ قَدْ جَاءَكُمْ. فَكَذَّبُوهَا، فَقَالَتْ: أَنَا فُلَانَةُ مَوْلَاتُكُمْ دَعَا لِي رَبَّهُ، فَرَدَّ عَلَيَّ بَصَرِي وَأَطْلَقَ رِجْلَيَّ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَاتَهُ مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَهُ. فَنَهَضَ النَّاسُ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَقَالَ ابْنُهُ: كَانَ لِأَبِي شَامَةٌ سَوْدَاءُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَكَشَفَ عَنْ كَتِفَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عُزَيْرٌ.

فَقَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِينَا أَحَدٌ حَفِظَ التَّوْرَاةَ فِيمَا حُدِّثْنَا غَيْرُ عُزَيْرٍ، وَقَدْ حَرَّقَ بُخْتُ نَصَّرَ التَّوْرَاةَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مَا حَفِظَتِ الرِّجَالُ؛ فَاكْتُبْهَا لَنَا. وَكَانَ أَبُوهُ سَرُوخَا قَدْ دَفَنَ التَّوْرَاةَ أَيَّامَ بُخْتُ نَصَّرَ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ غَيْرُ عُزَيْرٍ، فَانْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَحَفَرَهُ فَاسْتَخْرَجَ التَّوْرَاةَ، وَكَانَ قَدْ عَفِنَ الْوَرَقُ، وَدَرَسَ الْكِتَابُ.

فَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ حَوْلَهُ، فَجَدَّدَ لَهُمُ التَّوْرَاةَ، فَمِنْ ثَمَّ قَالَتِ الْيَهُودُ -قبحهم الله-: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ - جَلَّ

اللَّهُ وَعَزَّ - لِلَّذِي كَانَ مِنْ تَجْدِيدِهِ التَّوْرَاةَ وَقِيَامِهِ بِأَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وقَالُوا: لَمْ يَسْتَطِعْ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَنَا بِالتَّوْرَاةِ إِلَّا فِي كِتَابٍ، وَإِنَّ عُزَيْرًا قَدْ جَاءَنَا بِهَا مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ.

وإنما كَانَ عُزَيْرٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ} يَعْنِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ مَعَ بَنِيهِ وَهُمْ شُيُوخٌ وَهُوَ شَابٌّ؛ لِأَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَبَعَثَهُ اللَّهُ شَابًّا، كَهَيْئَةِ يَوْمَ مَاتَ. والْمَشْهُورُ أَنَّ عُزَيْرًا نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

اختلاف بني إسرائيل

ثم إنَّ بني إسرائيل اخْتَلَفُوا وتفرقوا فِي اتباع الْحَقِّ بَعْدَ أن هَدَاهُمْ الله وَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقَّ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، وفضلهم على أهل زمانهم من الأمم المعاصرة لهم، وبَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وأخذ عليهم الميثاق، ولَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمْ لِعَدَمِ الْعِلْمِ؛ بَلْ عَلِمُوا الْحَقَّ وَلَكِنْ بَغَى بَعْضُهُمْ لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ، إذ كل فرقة تريد الرئاسة لها دون غيرها، وحَمَلَهم البغيُ

والعنادُ لغيرهم عَلَى مُخَالَفَتِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا، فَيَتَّبِعُ بعضهم هَوَاهُ وَيُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ وَهو يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَزِيغُ عَنْهُ.

تحريف اليهود التوراة

وكَانَ كُفْرُ الْيَهُودِ بِتَبْدِيلِهِمْ أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ قَبْلَ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ، وَتَصَرَّفُوا فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ كَمَا تَصَرَّفُوا فِي مَعَانِيهَا، وتعددت نسخها المختلفة بينهم، وكَانَتْ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا مَاتَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، يُقِيم أَمْرَهُمْ وَيُزِيل مَا غَيَّرُوا مِنْ أَحْكَام التَّوْرَاة.

امرأة عمران تلد مريم

وكَانَ عِمْرَانُ بْنُ مَاثَانَ مِنْ ذُرِّيَّةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، وَكَانَ آلُ مَاثَانَ رُءُوسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارَهُمْ، وَكَانَ مُتَزَوِّجًا بِحَنَّةَ بَنْتِ فَاقُودَ، وَكَانَ زَكَرِيَّاءُ بْنُ بَرْخِيَّا –عليه السلام-نجّارًا، مُتَزَوِّجًا من إيشَاعَ بِنْتِ عِمْرَانَ أخت مريم.

وَكَانَتْ حَنَّةُ –امرأة عمران- نَذَرَتْ إِنْ يَرْزُقْهَا مَوْلُوداً أَنْ تَجْعَلَهُ مِنْ سَدَنَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَخَدَمِهِ، وَكَانَ النَّذْرُ الْمُحَرَّرُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُجْعَلَ لِلْكَنِيسَةِ يَقُومُ بِخِدْمَتِهَا وَلَا يَبْرَحُ مِنْهَا حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ، فَإِذَا بَلَغَ خُيِّرَ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يُقِيمَ فِيهَا أَقَامَ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ ذَهَبَ حَيْثُ شَاءَ. وَلَمْ يَكُنْ يُحَرَّرُ إِلَّا الْغِلْمَانُ، لِأَنَّ الْإِنَاثَ لَا يَصْلُحْنَ لِذَلِكَ لِمَا يُصِيبُهُنَّ مِنَ الْحَيْضِ وَالْأَذَى.

ثُمَّ مَاتَ عِمْرَانُ وَحَنَّةُ حَامِلٌ بِمَرْيَمَ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا إِذَا هِيَ أُنْثَى، فَقَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى}، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}، {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} فِي خِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ وَالْعِبَادِ الَّذِينَ فِيهَا، {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}، وَهِيَ بِلُغَتِهِمُ الْعَبَّادَةُ. ثُمَّ لَفَّتْهَا فِي خِرْقَةٍ وَحَمَلَتْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَوَضَعَتْهَا عِنْدَ الْأَحْبَارِ أَبْنَاءِ هَارُونَ، فَقَالَتْ: دُونَكُمْ هَذِهِ الْمَنْذُورَةَ، فَتَنَافَسُوا فِيهَا لِأَنَّهَا بِنْتُ إِمَامِهِمْ.

زكريا يكفل مريم

فَقَالَ زَكَرِيَّاءُ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، فَقَالُوا: لَكِنَّا نَقْتَرِعُ عَلَيْهَا. فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَاةَ فِي نَهْرٍ، فَارْتَفَعَ قَلَمُ زَكَرِيَّاءَ فَوْقَ

الْمَاءِ، وَرَسَبَتْ أَقْلَامُهُمْ، فَأَخَذَهَا وَكَفِلَهَا وَضَمَّهَا إِلَى أختها (إيشاع) أُمِّ يَحْيَى، وَاسْتَرْضَعَ لَهَا حَتَّى كَبِرَتْ، فَبَنَى لَهَا غُرْفَةً فِي الْمَسْجِدِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا إِلَّا بِسُلَّمٍ وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ، وَكَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، فَيَقُولُ: أَنَّى لَكِ هَذَا؟ فَتَقُولُ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

فَلَمَّا رَأَى زَكَرِيَّاءُ ذَلِكَ مِنْهَا؛ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى وَرَجَا الْوَلَدَ حَيْثُ رَأَى فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِمَرْيَمَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُصْلِحَ زَوْجَتِي حَتَّى تَلِدَ. فَ {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}.

زكريا يرزق بغلام اسمه يحيى

فَبَيْنَمَا زَكَرِيَّا يُصَلِّي فِي الْمَذْبَحِ الَّذِي لَهُمْ، بَشَّرَتْهُ المَلائِكَةُ أنّ اللهَ سَيَرْزُقُهُ بِغُلَامٍ، وَسَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى (يَحْيَى) وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مَنْ تَسَمَّى هَذَا الِاسْمَ. فَقَالَ زكريا: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} ؟ فَقِيلَ لَهُ: {كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ اسْتِخْبَارًا هَلْ يُرْزَقُ الْوَلَدَ مِنِ امْرَأَتِهِ الْعَاقِرِ أَمْ غَيْرِهَا، لَا إِنْكَارًا لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى. {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا} (يعني بالإشارة). فأَمْسَكَ اللَّهُ لِسَانَهُ عن الكلام مع الناس.

وكَانَ يَحْيَى قَوِيًّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ والْفَهم فِي الدّينِ مُنْذُ كَانَ صَبِيًّا. وَكَانَ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، وَلَا يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا الصِّبْيَانُ أَمْثَالُهُ: يَا يَحْيَى اذْهَبْ بِنَا نَلْعَبْ. فَقَالَ لَهُمْ: مَا لِلَّعِبِ خُلِقْتُ. ومَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا.

ولادة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

وتنحّت مريم عليها السلام عن أهلها، وانفردت بمكان على جهة الشرق منهم، فاتخذت لنفسها من دون قومها ساترًا يسترها حتى لا يروها حال عبادتها لربها، فبعث الله إليها جبريل عليه السلام، فتمثل لها في صورة إنسان سَوِيّ الخِلقة، فخافت أنه يريدها

بسوء. فلما رأته في صورة إنسان سَوِيّ الخَلْق يتّجه إليها؛ قالت: إني أستجير بالرحمن منك أن ينالني منك سوء -يا هذا- إن كنت تقيًّا تخاف الله. فقال لها: أنا لست بشرًا، إنما أنا رسول من ربك، أرسلني إليك لأهب لك ولدًا طيّبًا طاهرًا.

قالت مريم متعجبة: كيف يكون لي ولد ولم يقربني زوج ولا غيره، ولست زانية حتى يكون لي ولد؟! فقال لها جبريل: إنّ ربك سبحانه قال أن الخلق من غير أب هيّن عليه، وليكون الولد الموهوب لك علامة للناس على قدرة الله، ورحمة منه لك ولمن آمن به، وكان خَلْق ولدك هذا قضاء من الله مقدّرًا، مكتوبًا في اللوح المحفوظ.

فَأَخَذَ بِكُمِّهَا فَنَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا وَكَانَ مَشْقُوقًا مِنْ قُدَّامِهَا فَدَخَلَتِ النَّفْخَةُ صَدْرَهَا فَحَمَلَتْ به بعد نفخ الملَك.

فَأَتَتْهَا أُخْتُهَا امْرَأَةُ زَكَرِيَّا لَيْلَةَ تَزُورُهَا فَلَمَّا فَتَحَتْ لَهَا الْبَابَ الْتَزَمَتْهَا فَقَالَتِ امْرَأَةُ زَكَرِيَّا: يَا مَرْيَمُ أَشَعَرْتِ أَنِّي حُبْلَى؟ فَقَالَتْ مَرْيَمُ أَيْضًا: أَشَعَرْتِ أَنِّي حُبْلَى؟، فَقَالَتِ امْرَأَةُ زَكَرِيَّا: فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِلَّذِي فِي بَطْنِكِ. فَوَلَدَتِ امْرَأَةُ زَكَرِيَّا يَحْيَى، وَلَمَّا بَلَغَ أَنْ

تَضَعَ مَرْيَمُ خَرَجَتْ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ فتنحت بحملها إلى مكان بعيد عن الناس.

فألجأها المخاض إلى ساق نخلة، فقالت -اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ-: يا ليتني متّ قبل هذا اليوم، وكنت شيئًا لا يُذْكَر حتى لا يُظَن بي السوء. فناداها جبريل من تحتها في أسفل الوادي: لا تحزني، قد جعل ربك تحتك جدول ماءٍ تشربين منه. وأمسكي بجذع النخلة وهزيه تساقط عليك رطبًا طريًّا يُجنى من ساعته. فكلي من الرطب، واشربي من الماء، وطيبي نفسًا بمولودك ولا تحزني، فإن رأيت من الناس أحدًا فسألك عن خبر المولود فقولي له: إني أوجبت على نفسي لربي صمتًا عن الكلام، فلن أكلم اليوم أحدًا من الناس.

فجاءت مريم بابنها إلى قومها تحمله، فقال لها قومها مستنكرين: يا مريم، لقد جئت أمرًا عظيمًا مفترى، حيث جئت بولد من غير أب. يا شبيهة هارون في العبادة ما كان أبوك زانيًا، ولا كانت أمك زانية، فأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح، فكيف تأتين بولد من غير أب؟!

فأشارت إلى ابنها عيسى عليه السلام وهو في المهد، فقال لها قومها متعجبين: كيف نكلّم صبيًّا وهو في المهد؟! فقال عيسى

عليه السلام: إني عبد الله، قد قضى أن ينزل عليّ كتابه الإنجيل، وجعلني نبيًّا من أنبيائه، وجعلني مباركًا كثير النفع للعباد أينما كنت، وأمرني بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة طيلة حياتي. وجعلني بارًّا بأمي، ولم يجعلني متكبرًا عن طاعة ربي، ولا عاصيًا له. والسلام عليّ والأمان من الشيطان وأعوانه يوم ميلادي ويوم موتي ويوم أُبعَثُ حيًّا يوم القيامة، فلا يتخبّطْني الشيطان ولا يضرني.

نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام

وقد بعثه الله نبيًا ورسولاً إلى بني إسرائيل، يدعو إلى توحيد الله، ويبشر بمقدم خاتم النبيين، وأيّده بالمعجزات العظيمة، فكان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثمَّ ينفخ فيها فتصبح طيورًا بإذن الله وقدرته، ويمسح الأكمه –وهو من وُلد أعمى- فيبرأ بإذن الله، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه، ويمرُّ على الموتى فيناديهم فيحييهم الله تعالى، واستجاب الله له بإنزال المائدة من السماء عندما طلب الحواريون من عيسى إنزالها، وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيدًا لأولهم وآخرهم، وكان يخبرهم بما يأكلون وما

يدخرون في بيوتهم من طعام. ورَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عليه السلام - رَجُلاً يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟، قَالَ: كَلَّا، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا سَرَقْتُ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ وَكَذَّبْتُ بَصَرِي.

وأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لِثَلَاث عَشْرَةَ ليلة مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، مصدقًا ومتممًا لما في التوراة، وناسخًا لبعض شرائعها، وجاء فيه البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وأَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ عَلَى عِيسى -ومَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ- لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ؛ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَلَا تَكْتَفُوا بِمَا عِنْدَكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ عَلَى أَنْ تَتْرُكُوا مُتَابَعَتَهُ؛ بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ؛ فَلَا يُغْنِيكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

كفر اليهود بالمسيح ابن مريم عليه السلام

وَقَد جَاءَ الْمَسِيحُ بِالْحَقِّ، فكان نَسْخُ شَرْعِ التَّوْرَاةِ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْمَسِيحَ كَانَ عَلَى الْحَقِّ، وَمَنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمَسِيحُ فَإِنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، لَكِنّ اليهود كذّبوا الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ ابْنُ زِنَا، وقالوا على أمه بهتانًا عظيمًا، وقالوا: إن النصارى ليسوا على شيء من الدين الصحيح، وحرّضوا على عِيسى وسعوا في قتله.

قتل يحيى بن زكريا عليه السلام

وبُعِثَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ. وَكَانَ فِيمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ نِكَاحُ ابْنَةِ الْأَخِ. وَكَانَتْ لِمَلِكِهِمُ ابْنَةُ أَخٍ تُعْجِبُهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجُهَا فَكَانَتْ لَهَا كُلَّ يَوْمٍ

حَاجَةٌ يَقْضِيهَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أُمَّهَا؛ قَالَتْ لَهَا: إِذَا دَخَلْتِ عَلَى الْمَلِكِ فَسَأَلَكِ حَاجَتَكِ؛ فَقُولِي حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ لِي يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا.

فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَأَلَهَا حَاجَتَهَا فَقَالَتْ: حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَقَالَ: سَلِينِي غَيْرَ هَذَا، فَقَالَتْ: مَا أَسْأَلُكَ إِلَّا هَذَا. فَلَمَّا أَبَتْ عَلَيْهِ؛ دَعَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، وَدُعِي بِطَشْتٍ فَذَبَحَهُ.

رفع المسيح ابن مريم عليه السلام إلى السماء

واستمر المسيح عليه السلام في دعوته مراغمًا لليهود الذين أرادوا قتله، جريًا على عادتهم في قتل الأنبياء. واسْتَعَانَتِ الْيَهُودُ - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ -عَلَى مُعَادَاةِ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمُلُوكِ الْيُونَانِ، وَوَشَوْا عِنْدَهُمْ، وَأَوْحَوْا إِلَيْهِمْ أَنَّ هَذَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمُ الرَّعَايَا فَبَعَثُوا مَنْ يَقْبِضُ عَلَيْهِ.

ولَمَّا أراد اليهود قتل المسيح عِيسَى بن مريم - عليه السلام - وأَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَه إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ المسيح إِلَى أَصْحَابِهِ - وَهُمُ

اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً - مِنْ عين فِي الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ سَيُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلُ مَكَانِي، وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ ذَاكَ.

فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى، وَرُفِعَ عِيسَى - عليه السلام - مِنْ نَافِذَةٍ كَانَتْ فِي سَقْفِ الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ. وسيعود عليه السلام وينزل من السماء قبيل قيام الساعة حاكمًا بالإسلام.

زعم اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه

وبعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء جَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَخَذُوا الشَّبِيهَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَبُوهُ، ثم زعم اليهود أنهم قتلوا عيسى وصلبوه وقالوا: (إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)، وحقيقة الأمر أنهم (مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ).

الخراب الثاني لبيت المقدس

ثم كان لِلْخَرَابُ الثَّانِي لبيت المقدس لَمَّا رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وقَتَلُوا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ يُوحَنَّا الْمَعْمِدَانِيَّ؛ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ بَابِلَ يُقَالُ لَهُ: خَرْدُوسُ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ بِأَهْلِ بَابِلَ، وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ بِالشَّامِ، وبَعْدَ الْخَرَابِ الثَّانِي تَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ حِينَئِذٍ زَالَ مُلْكُهُمْ وَقَطَّعَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، وَكَانُوا تَحْتَ حُكْمِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مُلْكٌ. وَكُلُّ مَنْ جَاءَ بِشَرْعٍ لَمْ يَأْتِ بِهِ الْمَسِيحُ أَوْ أَرَادَ اتِّبَاعَ شَرْعِهِ بَعْدَ النَّسْخِ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ نَسَخَ اللَّهُ مَا نَسَخَهُ مِنْ شَرْعِهِمْ وَأَزَالَ دَوْلَتَهُمْ.

بولس اليهودي يحرف دين النصارى

ثم جاء بولس (شاؤول اليهودي) وهو أول من حرف الديانة النصرانية، ولم يكن من تلاميذ المسيح، ولم تثبت له رؤية المسيح عليه السلام في حياته، وكان يعتقد بالفلسفات والطقوس الوثنية في التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس، حسب

عقيدة بلاد اليونان التي تؤمن بالآلهة التي ماتت لتفتدي بموتها بني الإنسان.

وكان من أشدّ الناس اضطهادًا وتعذيبًا لأتباع المسيح عليه السلام، ثم تظاهر بالنصرانية وادعى أنه التقى مع المسيح وأن المسيح ظهر له فجأة في الطريق، وتحول بولس من عدو لأتباع المسيح إلى مغيّر لرسالة المسيح، واختلق عقيدة التثليث للنصارى، ودعا إلى تأليه المسيح وأنه ابن الله، وزعم أن المسيح صلب تكفيرًا عن خطيئة آدم وفداء عن البشرية وإثمها الذي تحملته بعد ذلك، لكي يجد مبررًا لصلب المسيح حسب ما توهمه.

وكتب كتابًا يحوي أربع عشرة رسالة ادعى أتباعه أنه كتبها بالإلهام، وهي التي بَنَت الديانة النصرانية المحرفة، وأضيفت إلى ما يسمى بـ (العهد الجديد) في الكتاب المقدس، وكذلك نَسَخَ بولس الختان، واستبدل السبت بالأحد، وزعم أن المسيح سيحاسب الناس يوم القيامة.

وعقيدة التثليث التي ابتدعها بولس لم يأت بها نبي من الأنبياء، ولا نزلت في كتاب من الكتب السماوية، ولم ترد في

التوراة، وعلماء اليهود -من عهد موسى عليه السلام إلى هذا الزمان- لا يعترفون بعقيدة التثليث، ولا يرضون بنسبتها إلى كتبهم.

برنابا ينقض تحريفات بولس

وأدت انحرافات بولس إلى افتراق برنابا الحواري عنه في رحلاته، وكتابته لإنجيل برنابا الذي صرح فيه بتوحيد الله تعالى وبالبشارة بالنبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وقال ببشرية عيسى -عليه السلام- وأنكر صلبه، وذكر أنه ألقي الشبه على يهوذا الإسخريوطي؛ كما ذكر أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق.

تحريف الإنجيل واختلاف نُسَخه

وكان الإنجيل كتابًا موجودًا ومعروفًا لدى النصارى الأوائل بأنه (إنجيل الله) أو (إنجيل المسيح)، وقد ذكره بولس في رسائله، إلا أنه صار عند النصارى -بدل ذلك الإنجيل الواحد- أناجيل كثيرة مختلفة ومتناقضة، أشهرها أربعة أناجيل مِنْ طريق مُرْقُسٍ وَلُوقَا وَمَتَّى وَيُوحَنَّا، وليس لها سند متصل، وهي أَشَدُّ اخْتِلَافًا وتحريفًا

وَأَكْثَرُ زِيَادَةً وَنَقْصًا مِنَ التَّوْرَاةِ المحرفة. ثم إنّ بني إسرائيل كتبوا كتابًا، فاتبعوه، وتركوا التوراة التي أنزلت على موسى. ودل على تحريف كتبهم التي بين أيديهم: انقطاع سندها، والتناقض الواضح بين نصوصها، واختلاف نُسخها وعدد أسفارها، وشهادة بعض علماء اليهود والنصارى على وقوع التحريف في كتبهم.

تحريف النصارى دينهم وتفرقهم

ثم إنّ النَّصَارَى -بعد فتنة بولس وتحريفه لدين المسيح عليه السلام- تَفَرَّقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَت فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا اللهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةِ أَصْحَابِ يَعْقُوبَ الْبَرَادِعِيِّ (الأرثدوكس)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةِ أَصْحَابُ نَسْطُورَسَ (الكاثوليك)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ هم الْمُسْلِمُونَ المتبعون للمسيح عليه السلام، ومنهم الْأَرْيُوسِيَّةِ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرْيُوسَ.

فأما النسطورية والعقوبية وما تفرع عنهم من فرق كافرة؛ فكلٌّ فِرْقَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ تُكَفِّرُ الْأُخْرَى وَتَعْتَقِدُ تَخْلِيدَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَلَا ترى مُجَامَعَتَهُمْ فِي الْمَعَابِدِ وَالْكَنَائِسِ، وَكُلُّهُمْ يَقُولُ بالتثليث، وَلَكِنْ بَيْنَهُمُ اخْتِلَافٌ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ فِيمَا بَيْنُ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ هَلْ تَدَرَّعَهُ؟ أَوْ حَلَّ فِيهِ؟ أَوِ اتَّحَدَ بِهِ؟، وَاخْتِلَافُهُمْ فِي ذَلِكَ شَدِيدٌ وَكُفْرُهُمْ بِسَبَبِهِ غَلِيظٌ.

تغيير الملك قسطنطين دين النصارى

وبَعْدَ رفع الْمَسِيحِ عليه السلام بِثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ تَحَاكَمُوا إِلَى الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينَ -بَانِي القسطنطينة- فلجؤوا للتصويت وقرروا عقيدة التثليث في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م، وصَارَ الْمَلِكُ إِلَى قَوْلِ الأَكْثَرِ، فَسُمُّوا: الْمَلَائِكَةَ، وسموا أيضًا: الْمَلَكِيَّةِ نسبة إلى المَلِك، فنصرهم وبنى لهم آلاف الكنائس ذات التصاوير والتماثيل.

وخَالَفُوا أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي أشياء كثيرة شَرَعُوهُا لِأَنْفُسِهِمْ، فَمِنْ ذَلِكَ صَلَاتُهُمْ إِلَى الشَّرْقِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ صَلَّى إِلَّا إِلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَحَوَّلُوا مَحَارِيبَ كَنَائِسِهِمْ إِلَى الشَّرْقِ لِأَنَّهَا

مَطْلِعُ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ عَلى اعْتِقَادِ اليُونَانِ، وَهَكَذَا تَصْوِيرُهُمْ الصور والأصنام في كَنَائِسَهُمْ وَلَمْ تَكُنْ مُصَوَّرَةً قَبْلَ ذَلِكَ، وَتَرْكُهُمُ الْخِتَانَ، وَنَقْلُهُمْ صِيَامَهُمْ إِلَى زمن الربيع، وزيادته إِلَى خَمْسِينَ يَوْمًا.

وَأَحَلُّوا أَشْيَاءَ هِيَ حَرَامٌ بِنَصِّ التَّوْرَاةِ وَمِنْ ذَلِكَ: أكل الْخِنْزِيرُ، وَوَضْعُهُمُ عقيدة التثليث المتناقضة الَّتِي يُسَمُّونَهَا: (الْأَمَانَةِ)، وَيَخْتَلِفُونَ فِي تَفْسِيرِهَا وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَكْبَرُ الْكُفْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَابتدعوا (الرَّهْبَانِيَّةُ) وَهِيَ تَرْكُ التَّزْوِيجِ لِمَنْ أَرَادَ التَّعَبُّدَ وَتَحْرِيمَهُ عَلَيْهِ، وَكَتبوا الْقَوَانِينَ الَّتِي وَضَعَتْهَا لَهُمُ الْأَسَاقِفَةُ الثَّلَاثُمِائَةِ وَالثَّمَانِيَةَ عَشَر.

فَكُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ابْتَدَعُوهَا فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينَ بْنِ قسطن بَانِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ باتفاق معه، (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) يُحَرِّمُونَ لهم مَا أَحَلَّ اللهُ، وَيُحِلُّونَ لهم مَا حَرَّمَ اللهُ فيتبعونهم.

اضطهاد الآريوسيين الموحدين

ثُمَّ تَظَاهَرَت الفرقُ النَّصْرَانِيَّةُ الْكَافِرَة (الْمَلَكِيَّةِ والنَّسْطُورِيَّةِ والْيَعْقُوبِيَّةِ) عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ المُوَحِّدَةِ (الْأَرْيُوسِيَّةِ)، فَقَاتَلُوهَا وحرضوا عليها الملك قسطنطين. وكَانَ فِي الْأَرْيُوسِيِّين النصارى مُؤْمِنُونَ موحدون يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ، فَقِيلَ للملك قسطنطين: مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمِ هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ} وَيَعِيبُونَ بِهَا أَعْمَالَنَا، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا.

فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلَ، أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مَا المُحَرَّفَةَ مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ؟، دَعُونَا. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْقَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ وَنَهِيمُ، وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مِنْهُمْ ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي وَنَحْتَفِرُ الْآبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ، فلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ، -وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ الْقَبَائِلِ

إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ- فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وتفرق أصحابها فَسَكَنُوا الْبَرَارِيَ وَالْبَوَادِيَ وَبَنَوُا الصَّوَامِعَ وَالدِّيَارَاتِ وَقَنِعُوا بِالْعَيْشِ الزَّهِيدِ، وقد قال الله فيهم: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} وَالْآخَرُونَ قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تَعَبَّدَ فُلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ.

قصة سبأ وسد مأرب

وكَانَت مملكة سبأ –في اليمن- فِي نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ وَأَرْزَاقٍ دَارَّةٍ وَثِمَارٍ وَزُرُوعٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ وَطَرِيقِ الرَّشَادِ فَلَمَّا عَدَلُوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، وأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ.

وذلك أَنَّ سَدَّ مَأْرِبَ كَانَ قِصَّتُهُ: أَنَّ الْمِيَاهَ تَجْرِي مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ، فَسَدُّوا مَا بَيْنَهُمَا بِبَنَاءٍ مُحْكَمٍ جِدًّا حَتَّى ارْتَفَعَ الْمَاءُ إِلَى أَعَالِي الْجَبَلَيْنِ، وَغَرَسُوا فِيهِمَا الْبَسَاتِينَ وَالْأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ الْأَنِيقَةَ، وَزَرَعُوا الزُّرُوعَ الْكَثِيرَةَ، حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَمُرُّ بِالْمِكْتَلِ عَلَى رَأْسِهَا

فَيَمْتَلِئُ مِنَ الثِّمَارِ مَا يَتَسَاقَطُ فِيهِ مِنْ نُضْجِهِ وَكَثْرَتِهِ، وأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْبَرَاغِيثِ وَلَا الدَّوَابِّ الْمُؤْذِيَةِ لِصِحَّةِ هَوَائِهِمْ وَطِيبِ فِنَائِهِمْ.

فَلَمَّا عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، وَبَطَرُوا نِعْمَتَهُ، وَسَأَلُوا -بَعْدَ تَقَارُبِ مَا بَيْنَ قُرَاهُمْ، وَطِيبِ مَا بَيْنَهَا مِنَ الْبَسَاتِينِ، وَأَمْنِ الطُّرُقَاتِ- سَأَلُوا أَنْ يُبَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ سَفَرُهُمْ فِي مَشَاقٍّ وَتَعَبٍ، وَطَلَبُوا أَنْ يُبَدَّلُوا بِالْخَيْرِ شَرًّا، كَمَا سَأَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَدَلَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى الْبُقُولَ وَالْقِثَّاءَ وَالْفُومَ وَالْعَدَسَ وَالْبَصَلَ؛ فَسُلِبُوا تِلْكَ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْحَسَنَةَ الْعَمِيمَةَ بِتَخْرِيبِ الْبِلَادِ وَالشَّتَاتِ عَلَى وُجُوهِ الْعِبَادِ.

وأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى أَصْلِ السَّدِّ الْفَأْرَ وَهُوَ الْجُرَذُ، وَيُقَالُ: الْخُلْدُ. فَلَمَّا فَطِنُوا لِذَلِكَ أَرْصَدُوا عِنْدَهَا السَّنَانِيرَ (القطط) فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا، فسَقَطَ وَانْهَارَ، فَسَلَكَ الْمَاءُ وجَرَى سَيْلُ الْعَرِمِ، فَقُطِعَتْ تِلْكَ الْجَدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ، وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الثِّمَارُ، وَبَادَتْ تِلْكَ الزُّرُوعُ وَالْأَشْجَارُ، وَتَبَدَّلُوا بَعْدَهَا بِرَدِيءِ الْأَشْجَارِ وَالْأَثْمَارِ.

ولَمَّا هَلَكَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَخَرِبَتْ بِلَادُهُمُ احْتَاجُوا أَنْ يَرْتَحِلُوا مِنْهَا، وَيَنْتَقِلُوا عَنْهَا، فَتَفَرَّقُوا فِي غَوْرِ الْبِلَادِ وَنَجْدِهَا أَيْدِيَ سَبَأٍ شَذَرَ

مَذَرَ، فَنَزَلَتْ طَوَائِفُ مِنْهُمُ الْحِجَازَ، وَهُمْ خُزَاعَةُ نَزَلُوا ظَاهِرِ مَكَّةَ، وَمِنْهُمُ من نزل الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ وهم الأوس والخزرج فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ سَكَنَهَا، ثُمَّ نَزَلَتْ عِنْدَهُمْ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مِنَ الْيَهُودِ؛ بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَنُو النَّضِيرِ، فَحَالَفُوا الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ وَأَقَامُوا عِنْدَهُمْ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْهُمُ الشَّامَ، وَهُمُ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا فِيمَا بَعْدُ، وَهُمْ غَسَّانُ وَعَامِلَةُ وَبَهْرَاءُ وَلَخْمٌ وَجُذَامٌ وَتَنُوخُ وَتَغْلِبُ وَغَيْرُهُمْ.

وَلَيْسَ جَمِيعُ سَبَأٍ خَرَجُوا مِنَ الْيَمَنِ لَمَّا أُصِيبُوا بِسَيْلِ الْعَرِمِ؛ بَلْ أَقَامَ أَكْثَرُهُمْ بِهَا، وَذَهَبَ أَهْلُ مَأْرِبٍ الَّذِينَ كَانَ لَهُمُ السَّدُّ فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ.

قِصَّةُ تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ

وكَانَ قَوْمُ تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ -مَلِكِ الْيَمَنِ- أَصْحَابَ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا، ومَرَّ تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ بجيشه على المدينة، وقاتل أهلها، فَجَاءَهُ حَبْرَانِ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ حِينَ سَمِعَا بِمَا يُرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا، فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّهَا مُهَاجَرُ نَبِيٍّ يَخْرُجُ مِنْ

هَذَا الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ، تَكُونُ دَارَهُ وَقَرَارَهُ، فَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمَا فَانْصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَاتَّبَعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا.

وتَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَنَحَرَ عِنْدَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْيَمَنِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنُودِهِ، وَبِالْحَبْرَيْنِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الْيَمَنَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الدُّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ.

قِصَّةُ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ بنجران

ثم كان المُلك لذي نواس ابن تبّع المذكور ولم يكن مؤمنًا، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرُ، قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي وَحَضَرَ أَجَلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لْأُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ، وَكَانَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ السَّاحِرِ رَاهِبٌ فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ وَقَالَ: مَا حَبَسَكَ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا: مَا حَبَسَكَ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَظِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ السَّاحِرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ أَمْ أَمْرَ الرَّاهِبِ قَالَ: فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ بإذن الله حين يدعو الله لهم.

وَكَانَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: اشْفِنِي وَلَكَ مَا هَاهُنَا أَجْمَعُ. فَقَالَ: مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ؛ شَفَاكَ. فَآمَنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي قَالَ: أَنَا قَالَ: لَا. رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبْهُ، حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَأُتِيَ بِهِ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءَ، قَالَ: مَا أَشْفِي أَنَا أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَوَلَكَ رَبٌّ

غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ قَالَ: فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأُتِيَ بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوُا الْجَبَلَ قَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَدُهْدِهُوا أَجْمَعُونَ. وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرْقُورٍ فَقَالَ: إِذَا لَجَجْتُمُ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَأَغْرِقُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَّجُوا بِهِ الْبَحْرَ فَقَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَغَرِقُوا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ قُلْ: "بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ"، فَإِنَّكَ إِذَا

فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ رَمَاهُ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ!. فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَحَفَرَ فِيهَا الْأَخَادِيدَ، وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النِّيرَانُ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ، وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا. فَكَانُوا يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، وَيَتَدَافَعُونَ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: اصْبِرِي يَا أُمَّاهُ فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ.

تسلط الأحباش النصارى على اليمن

ولما قَتَلَ ذو نُوَاس أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دَوس ذُو ثَعْلَبَانِ، فَذَهَبَ فَاسْتَغَاثَ بِقَيْصَرَ مَلَكِ الشَّامِ -وَكَانَ نَصْرَانِيًّا-فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلَكِ الْحَبَشَةِ؛ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ أَرِيَاطَ وَأَبْرَهَةَ فِي جَيْشٍ

كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلَبُوا الْمُلْكَ مِنْ حِمْيَرَ، وذهب ذو نواس هاربًا فَلَجَّج فِي الْبَحْرِ، فَغَرِقَ.

وَاسْتَقَلَّ الْحَبَشَةُ بِمُلْكِ الْيَمَنِ وَأَرْسَلَ أَبَرْهَةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلُهَا. فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيعَةَ الْبِنَاءِ، عَالِيَةَ الْفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةَ الْأَرْجَاءِ. سَمَّتْهَا الْعَرَبُ الْقُلَّيس؛ لِارْتِفَاعِهَا؛ لِأَنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلَنْسُوَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنَ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا.

وَعَزَمَ أَبَرْهَةُ الأشرمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحَج إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ وَالْقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا. فَأَحْدَثَ فِيهَا وَكَرَّ رَاجِعًا.

فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةُ ذَلِكَ الْحَدَثَ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبَرْهَةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبَرْهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ، وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجَرًا.

قصة أصحاب الفيل

وتَأَهَّبَ أَبْرَهَةُ لهدم الكعبة وَصَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمرم؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلاً عَظِيمًا كَبِيرَ الْجُثَّةِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِيَهْدِمَ الْكَعْبَةَ، بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوضَعَ فِي عُنُق الْفِيلِ، ثُمَّ يُزْجَرَ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

وقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَهَيَّأَ فِيلَهُ وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ؛ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ. وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشتد حَتَّى أُصْعِدَ فِي الْجَبَلِ.

وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى. فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا

مِنَ الْبَحْرِ جَمَاعَات يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْحُمُّصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، ولَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ مِمَّنْ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا، حَتَّى مَاتَ.

وأصابت قريشٌ مَالاً جَزِيلاً مِنْ أَسْلَابِهِمْ، وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، وأَعْظَمَتِ العَرَبُ قُرَيْشًا، وقَالُوا: هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، قَاتَلَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكَفَاهُمُ العَدُوَّ، وازْدادُوا تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الحَرَامِ، وإِيمَانًا بِمَكَانِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وأَرَّخُوا بِهِ، وقَالُوا: وَقَعَ هَذَا فِي عَامِ الفِيلِ.

ولادة رسول الله محمد ونشأته

ووُلِدَ رَسُولُ اللهِ يتيمًا في عَامِ الفِيلِ، وأرضعته أُمُّهُ آمِنَةُ، ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ مَوْلاةُ أبي لهَبٍ، ثم حليمة السعدية، وفي صباه عندها غسل قلبه وختم عليه بخاتم النبوة، وتوفيت أمه بِالْأَبْوَاءَ، وهِيَ رَاجِعَةٌ بِهِ مِنَ المَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ وَعُمُرُه سِتَّ سِنِينَ، فكفله جده

عبدالمطلب حتى كان عُمُرُ النَبيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم- ثَمَانِ سِنِينَ، ثم مات عبدالمطلب فكفله عمه أبو طالب.

واشْتَغَلَ النَّبِيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- فِي صِبَاهُ بِرَعْيِ الغَنَمِ لِأَهْلِ مَكَّةَ. وشهد حلف الفضول لنصرة المظلوم في ذِي الْقَعْدَةِ عام (٣٣ ق هـ).

وفِي الخَامِسَةِ والعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ تزوج خديجة بنت خويلد بعد خروجه في تجارة لها إلى الشام وسماعها بأخلاقه وأمانته، وكَانَ عُمُرُهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَوْمَئِذٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَتْ لَهُ القَاسِمُ ثُمَّ زَيْنَبُ، ثمَّ رُقَيَّةُ، ثمَّ أُمُّ كُلْثُومٍ، ثمَّ فَاطِمَةُ، ثُمَّ وُلِدَ لهُ فِي الإِسْلَامِ عَبْدُ اللَّهِ، ومات بنوه وهم صغار، وبناته أدركن الإسلام، وَكُلُّهُنَّ مِتْنَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم-، مَا عَدَا فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَدْ تُوُفِّيَتْ بَعْدَهُ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.

وفي عام (١٨ ق هـ) وضع الحجر الأسود في مكانه بيده لما اختلفت قريش فيه عندما أعادوا بناء الكعبة، ولم يبق على الحنيفية من الناس إلا قليل، وكَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - مِنْ الْوَحْيِ؛ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ.

فنزل عليه جبريل بالوحي في غار حراء، وخاف عليه الصلاة والسلام فسانتده خديجة وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فأخبره أن هذه دلائل النبوة.

وأرسل النبي للناس كافة، ونزل عليه الوحي منجمًا وبأحوال مختلفة، وبقراءات عديدة، وكان القرآن الكريم أعظم المعجزات المؤيدة له والباقية بعده.

من معجزاته وخصاله وفضائله عليه الصلاة والسلام

يقول عن نفسه عليه الصلاة والسلام: أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْنِي الصَلَاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَخُتِمَ بِيَ

النَّبِيُّونَ، وَالْخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ، قِيلَ لِي: سَلْ، فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ، فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي، وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ لَقِيَ اللهَ -عز وجل- لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ، أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ".

وكان جميل الوجه حتى وصفوه بالبدر، وعرقه من أطيب الطيب، تنام عيناه ولا ينام قلبه، ويأخذ الهدية ولا يأكل الصدقة، ويرى المؤمومين في الصلاة خلفه، ويواصل الصيام يبيت يطعمه ربه ويسقيه، عرفه أهل الكتاب في كتبهم باسمه ووصفه ومخرجه ومبعثه، وحاجّهم مرارًا ونُكسوا عن مباهلته، وصارع ركانة فصرعه، وأمر جبل أحد أن يثبت لما اهتز، وخنق إبليس حتى أحس ببرد لعابه بين إصبعيه، وأعانه الله على شيطانه فأسلم، ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به.

وشهد الله له أنه على خلق عظيم، وكان خُلُقه القرآن، ومَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا لَعَنَ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ لَعْنَةٍ تُذْكَرُ.

وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ - عز وجل - فَيَنْتَقِمَ للهِ، وَمَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

وَسَابَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَخَصَفَ نَعْلَهُ بِيَدِهِ وَرَقَّعَ ثَوْبَهُ بِيَدِهِ، وَرَقَّعَ دَلْوَهُ وَحَلَبَ شَاتَهُ وَفَلَّى ثَوْبَهُ وَخَدَمَ أَهْلَهُ وَنَفْسَهُ، وَحَمَلَ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، وَرَبَطَ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَ مِنَ الْجُوعِ تَارَةً وَشَبِعَ تَارَةً، وَأَضَافَ وَأُضِيفَ، وَاحْتَجَمَ فِي وَسَطِ رَأْسِهِ وَعَلَى ظَهْرِ قَدَمِهِ، وَاحْتَجَمَ فِي الْأَخْدَعَيْنِ وَالْكَاهِلِ، وَتَدَاوَى وَكَوَى وَلَمْ يَكْتَوِ، وَرَقَى وَلَمْ يَسْتَرْقِ، وَحَمَى الْمَرِيضَ مِمَّا يُؤْذِيهِ.

وجعل الله بعثته رحمة للعالمين، ومَا خَاطَبَهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا بِالْكِنَايَةِ الَّتِي هِيَ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ الَّتِي لَا أَجَلَّ مِنْهَا فَخْرًا، ونهى الناس أَنْ يُخَاطِبُوه بِاسْمِهِ، وندبهم إلى تكنيته، ودافع الله عنه فبرأه في كتابه من كل ما رماه به الكفار من السحر والكهانة والجنون، وزكاه

بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمر الناس بالتأسي به، وفرض طاعته.

وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجعل أزواجه أمهات للمؤمنين لا ينكحهن أحد بعده، وقرن الله اسمه باسمه تعالى عند ذكر طاعته وأحكامه، وأقسم الله بحياته، وأفرده بسيادة ولد آدم في القيامة، وحفظه من التدين بدين الجاهلية، ومن تعريهم، ومن لهوهم.

وحرست السماء من استراق السمع لثبوت بعثته وعلو دعوته، وأسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، ورأى من آيات ربه الكبرى، وما زاغ بصره وما طغى، وعاد متواضعًا حريصًا على أمته مشفقًا عليها بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وانشق الْقَمَرُ بِدُعَائِه فِلْقَتَيْنِ، وصبر على أذى المشركين وعنادهم بعدما رأوا الآيات والمعجزات، واستمع له نفر من الجن فآمنوا به، وأخبر بالمعجزات الغيبية وانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، ولما تآمر الكفار على قتله حجبه الله عنهم فلم يروه وأنجاه الله، وهاجر إلى المدينة، فبوركت غنم مر بها في طريقه،

ونصره الله في الغار وحماه من المشركين وأنزل عليه سكينته وأيده بجنود من عنده، وصد عنه لحاق سراقة بن مالك، وصبر على مشقة الدعوة وجاهد المشركين.

وشكت إليه بعض البهائم فنصرها وأوصى بها أصحابها، وتسابقت إليه الإبل يوم النحر أيها ينحر أولاً بيده الشريفة، وسلم عليه الحجر والشجر قبيل بعثته، وحن إليه الجذع الذي كان يستند إليه في مسجده قبل أن يصنعوا له المنبر، وتبارك الطعام والماء بدعائه و بيده أو نفثه أو مجّه، وأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً (مشوية) سَمَّتْهَا فأخبرته الشاة أنها مسمومة، وتكلم الذئب شاهدًا بنبوته، وسبح الحصى في يده، وقَدِمِ الشَّجَرُ إِلَيْه إذ دعاه، ونبع الماء من بين أصابعه، وشفى الله على يده جراحًا وأعينًا ومرضى، وأخبر بأشراط الساعة وما يكون إلى قيامها.

وما ترك خيرًا إلا دل أمته عليه، ولا شرّاً إلا حذرها منه، وجعلها الله خير الأمم، معصومة لا تجتمع على ضلالة، ولن تضل ما تمسكت بسنته وهديه، وشريعتها ناسخة لما قبلها، أمة شاهدة على الأمم يوم القيامة بتبليغ الرسل، وصفوفها كصفوف الملائكة، ونبيها هو أول شافع ومشفَّع، وصاحب الشفاعة العظمى، وأول من

تنشق الأرض عنه يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها، وأكثر الأنبياء أتباعًا، أوتي جوامع الكلم، وأُنزل عليه القرآن معجزة خالدة إلى قيام الساعة محفوظًا من التحريف والتبديل، تحدى الناس أن يأتوا بسورة من مثله، وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود.

الدَّعْوَةُ في مكة

وبَدَأ النبيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- يدْعُو إِلَى الإِسْلَامِ سِرًّا لِئَلَّا يُفَاجِئَ أَهْلَ مَكَّةَ بِما يُهَيِّجُهُمْ علَيْهِ، فأسلمت زوجته وبناته وعلي ابن عمه أبا طالب ومولاه زيد بن حارثة وصاحبه أبو بكر الصديق وغيرهم.

وكَانَتْ الصَّلَاةُ المَفْرُوضَةُ قَبْلَ الإِسْرَاءِ ثِنْتيْنِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ في وَقْتِ الفَجْرِ، وقَبْلَ الغُرُوبِ في وَقْتِ العَصْرِ، وقِيامُ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِبًا ثُمَّ نُسِخَ، وكانوا يستخفون بصلاتهم في شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مَكَّةَ. والدَّعْوَةُ لَمْ تَزَلْ سِرِّيَّةً فَرْدِيَّةً ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، تَكَوَّنَتْ خِلَالَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ تَقُومُ عَلَى الأُخُوَّةِ والتَّعَاوُنِ.

ثم أُمِرَ بالجَهْرِ بالدَّعْوَةِ، وَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ المُسْلِمِينَ، يَحْبِسُونَهُمْ، ويُعَذِّبُونَهُمْ بالضَّرْبِ، والجُوعِ، والعَطَشِ، وبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ. وحَمَى اللَّهُ رَسُولَهُ -صلى اللَّه عليه وسلم- بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَرِيفًا مُعَظَّمًا فِي قُرَيْشٍ، مُطَاعًا فِي أَهْلِهِ، وأَهْلُ مَكَّةَ لا يَتَجَاسَرُونَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الأَذَى.

وَكَانَ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ إِذَا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- هَمَزَهُ ولَمَزَهُ، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ سُّورَةَ الهُمَزَة، أَمَّا أَخُوهُ أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ فَجَاءَ يَوْمًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- بِعَظْمٍ بَالٍ، فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ! أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرِمَ، ثُمَّ فتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَهُ نَحْوَ رسُولِ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: نَعَمْ أنَا أقُولُ ذَلِكَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وإِيَّاكَ بَعْدَمَا تَكُونَانِ هَكَذَا، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ. فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ..) الآيات.

وَكَانَ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ يَقُولُ: أيُنْزَلُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وأُتْرَكُ وأنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وسَيِّدُهَا؟ ويُتْرَكُ أَبُو مَسْعُودٍ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، فنَحْنُ عَظِيمَا القَرْيَتَيْنِ، فنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَوْلَا

نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ).

وقَالَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ: دَعُوهُ، فإنَّمَا هُوَ رَجُلٌ أبْتَرُ لا عَقِبَ لَهُ، لَوْ قَدْ مَاتَ لانْقَطَعَ ذِكْرُهُ واسْتَرَحْتُمْ مِنْهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

وقَالَ أَبُو جَهْلٍ -لَعَنَهُ اللَّهُ- يَوْمًا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، يَزْعُمُ أَنَّهَا شَجَرَةٌ فِي النَّارِ يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، والنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، إِنَّمَا الزَّقُّومُ التَّمْرُ والزُّبْدُ، هَاتُوا تَمْرًا وزُبْدًا وتَزَقَّمُوا، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ}.

وقَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-: قَدْ نَعْلَمُ يا مُحَمَّدُ إنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، ولا نُكَذِّبُكَ، ولَكِنْ نُكذِّبُ الذِي جِئْتَ بِهِ، فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}. وجَاءَ رُكَانَةُ بنُ عَبْدِ يَزِيدَ يُصارع الرَّسُولَ -صلى الله عليه وسلم-، فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- ثَلاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ مَرَّةٍ

عَلَى مِائَةٍ مِنَ الغَنَمِ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ، قَالَ: يا مُحَمَّدُ ما وَضَعَ ظَهْرِي عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ قَبْلَكَ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْكَ، وأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقامَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-، ورَدَّ عَلَيْهِ غَنَمَهُ.

وكَانَ أَبُو لَهَبٍ يَتْبَعُ رسُولَ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- فِي الأَسْوَاقِ، والمَجَامِعِ، ومَوَاسِمِ الحَجِّ، ويُكَذِّبُهُ.

وكان بعضهم ينعتونه بـ (مُذَمَّم)، فكان عليه الصلاة والسلام يقول: "أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ ولَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا، ويَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وأنَا مُحَمَّدٌ".

وكَانَ عُتْبَةَ بن ربِيعَةَ سَيِّدًا مُطَاعًا فِي قَوْمِهِ، وكَانَ قَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ، فقَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا، فَنُعْطِيَهُ أَيَّهَا شَاءَ، ويَكُفَّ عَنَّا؟ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- فَقَال: يَا ابْنَ أَخِي! إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ فِي العَشِيرَةِ، والمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ،

فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ ودِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ"، قَال: يَا ابْنَ أَخِي! إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الذِي يَأْتِيكَ رِئْيًا تَرَاهُ، لا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَوْلِهِ ورَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ رَسُول اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟ "، قال: نَعَمْ، قَالَ: "فَاسْتَمِعْ مِنِّي"، قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَال رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ}.. الآيات، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه

عليه وسلم- فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انتهَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ -صلى اللَّه عليه وسلم: "قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ! ".

فَرَجَعَ عُتْبَةُ عَلَى قُرَيْشٍ وقال لهم: خَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ، فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ.

وَكَانَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ يَسْتَشْعِرُونَ حَلاوَةَ القُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ، ولَكِنَّهُمْ يُكَابِرُونَ. قَالَ الوَلِيدُ بنِ المُغِيرَةِ: ومَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ ما فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، ولا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ، ولَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، ولا بِأَشْعَارِ الجِنِّ، واللَّهِ مَا يُشْبِهُ الذِي يقُولُ شَيْئًا منْ هَذَا، ووَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الذِي يَقُولُ حَلَاوَةٌ، وإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ، وإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وإِنَّهُ لَيَعْلُو ومَا يُعْلَى، وإِنَّهُ لَيَحْطِمُ ما تَحْتَهُ، فقَالَ له أبو جهل:

لا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حتَّى تقُولَ فيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حتَّى أُفكِّرَ، فلَمَّا فكَّرَ قَالَ: هذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ.

وقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا شَيْئًا مِمَّا عَرَضْنَاهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَضْيَقَ بَلَدًا، ولَا أَقَلَّ مَاءً، وَلَا أَشَدَّ عَيْشًا مِنَّا، فَسَلْ لَنَا رَبَّكَ الذِي بَعَثَكَ بِمَا بَعَثَكَ بِهِ، فَلْيُسَيِّرْ عَنَّا هَذِهِ الجِبَالَ التِي قَدْ ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا، ولْيَبْسُطْ لَنَا بِلَادَنَا، ولْيُفَجِّرْ لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا كَأَنْهَارِ الشَّامِ والعِرَاقِ، ولْيَبْعَثْ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، ولْيَكُنْ فِيمَنْ يَبْعَثُ لَنَا مِنْهُمْ: قُصَيَّ بنَ كِلَابٍ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخَ صِدْقٍ، فَنَسْأَلُهُمْ عَمَّا تَقُولُ: أَحَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ، فَإِنْ صَدَّقَكَ وَصَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ صَدَّقْنَاكَ، وعَرَفْنَا بِهِ مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ، وأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ، فَقَالَ لَهُمْ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "مَا بِهَذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، حتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ".

قَالُوا: فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا لَنَا، فَخُذْ لِنَفْسِكَ، سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ، ويُرَاجِعُنَا عَنْكَ، وسَلْهُ فَلْيَجْعَلْ لَكَ جِنَانًا وقُصورًا وكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ، يُغْنِيكَ بِهَا عَمَّا نَرَاكَ

تَبْتَغِي، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ كَمَا نَقُومُ، وتَلْتَمِسُ المَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُ، حتَّى نَعْرِفَ فَضْلَكَ ومَنْزِلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولاً كَمَا تَزْعُمُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "مَا أنَا بِفَاعِلٍ، ومَا أنَا بِالذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، ولَكِنَّ اللَّه بَعَثَنِي بَشِيرًا ونَذِيرًا، فَإِنْ تَقْبَلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ".

قَالُوا: فأسْقِطِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسَفًا كَمَا زَعَمْتَ أَنَّ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّا لا نُؤْمِنُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلَ".

قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أفَمَا عَلِمَ رَبُّكَ أَنَّا سَنَجْلِسُ مَعَكَ، ونَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ، ونَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ، فَيَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَيُعْلِمَكَ مَا تُرَاجِعُنَا بِهِ، ويُخْبِرَكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا، إِذَا لَمْ نَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ؟، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكَ إِنَّمَا يُعَلِّمُكَ هَذَا رَجُلٌ بِاليَمَامَةِ، يُقَالُ لَهُ: الرَّحْمَنُ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بالرَّحْمَنِ أَبَدًا، فَقَدْ أعْذَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ! وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَتْرُكُكَ ومَا بَلَغْتَ مِنَّا، حَتَّى نُهْلِكَكَ أَوْ تُهْلِكَنَا.

وَقَالَ قَائِلُهُمْ: نَحْنُ نَعْبُدُ المَلَائِكَةَ، وهِيَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَقَالَ آخَرُ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ قَبِيلاً.

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، قَامَ عَنْهُمْ، وقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيُّ -وهُوَ ابنُ عَمَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- عَاتِكَةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ- فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لِأَنْفُسِهِمْ أُمُورًا لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تَأْخُذَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فَضْلَكَ عَلَيْهِمْ، ومَنْزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ، فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا تُخَوِّفُهُمْ بِهِ مِنَ العَذَابِ، فَلَمْ تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَا أُؤْمِنُ بِكَ أَبَدًا حَتَّى تَتَّخِذَ إِلَى السَّمَاءِ سُلَّمًا، ثُمَّ تَرْقَى فِيهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْكَ حَتَّى تَأْتِيَهَا، وتَأْتِيَ مَعَكَ بِنُسْخَةٍ مَنْشُورَةٍ، ثُمَّ تَأْتِيَ مَعَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ المَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ، وأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا ظَنَنْتُ أَنِّي أُصَدِّقُكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

وسَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنَحِّيَ الجِبَالَ عَنْهُمْ، فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ -أيْ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم-: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِي بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نُؤْتِيَهُمُ الذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ

-صلى اللَّه عليه وسلم-: "لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}.

وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ إِذَا سَمِعَ بالرَّجُلِ قَدْ أَسْلَمَ ولهُ شَرَفٌ ومَنَعَةٌ؛ أَتَّبَهُ وأَخْزَاهُ، وَقَالَ: تَرَكْتَ دِينَ أَبِيكَ وهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، لَنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ، ولَنُفَيِّلَنَّ رَأْيَكَ، ولَنَضَعَنَّ شَرَفَكَ. وَإِنْ كَانَ تَاجِرًا قَالَ: واللَّهِ لنكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، ولَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ. وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا ضَرَبَهُ وأَغْرَى بِهِ.

الهجرة إلى الحبشة ومحاولة منعها

وفي رجب في السنة الخامسة من البعثة النبوية (٨ ق هـ) خرج بعض الصحابة إلى الحبشة حيث أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ، وقَالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ".

وأرسلت قريش بالهدايا للنجاشي وبطارقته ليرشوهم في إعادة المسلمين المهاجرين عندهم، فطلب النجاشي حضور الصحابة المهاجرين عنده ليسمع منهم، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشِّرْكِ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا نُحَرِّمُهُ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا

عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: اقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ {كهيعص}، فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا –وَاللهِ- وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْمِشْكَاةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عِيسَى. وَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا، هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ. فَدَلَّى النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ. ورفض النجاشي رشوة قريش وردَّ إليهم هداياهم.

محاولة قريش مساومة أبي طالب

وفي مكة أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبدالمطلب وجعل الإسلام يفشو، فلجأت قريشٌ إلى مساومة أبي طالب بأن يعطوه عُمارَةَ بنِ الوَليدِ بنِ المُغِيرَةِ يتبنّاه، مقابل أن يسلِّمهم رسول الله ليقتلوه، فرفض، وأصر على حماية ابن أخيه، وخاف عليه، وقَامَ أَبُو طَالِبٍ فِي بَنِي هاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ، فَدَعَاهُمْ إلى حماية رَسُولِ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- فاستجابوا لحمايته إِلَّا عمه أَبا لَهَبٍ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي ذَلِكَ شِعْرَاً مِنْ أَفْضَلِ الشِّعْرِ يَمْدَحُهُمْ بِه ويمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حصار الشِّعْب

ثم اجْتَمَعَ صناديدُ قريشٍ وَائْتَمَروا بَيْنَهُمْ أَنْ يَكْتبوا كِتَابًا يَتَعَاقَدُونَ فِيهِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ أَنْ لَا يُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ، ولَا يُنْكِحُوهُمْ، وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيئًا، وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ، وَأَنْ يُضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا يُجَالِسُوهُمْ، ولَا يُخَالِطُوهُمْ حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ

-صلى اللَّه عليه وسلم- لِلْقَتْلِ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ؛ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا وتَوَاثَقُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ عَلَّقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

ولَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- وَالمُسْلِمُونَ فِي الشِّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ، وقَطَعَتْ عَنْهُمْ قُرَيْشٌ المِيرَةَ والمَادَّةَ، وَقَطَعَتْ عَلَيْهِمُ الأَسْوَاقَ، فكَانُوا لَا يَتْرُكُونَ طَعَامًا يَدْنُو مِنْ مَكَّةَ وَلَا بَيْعًا إِلَّا بَادَرُوا إِلَيْهِ فَاشْتَرَوْهُ دُونَهُمْ لَيَقْتُلَهُمُ الجُوعُ، واشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فِيهِنَّ البَلَاءُ وَالجَهْدُ في شعب أبي طالب ثلاث سنين، حتى نُقضت الصحيفة وفُك الحصار.

محاولة كبح الإسلام قبيل وفاة أبي طالب

وبدأ مرض الموت بأبي طالب، فلمّا بَلَغَ قُرَيْشًا ثِقَلُهُ، خَشُوا أَنْ تُعَيِّرَهُمُ العَرَبُ إِنْ أَتَوْا بَعْدَ وَفَاتِهِ بِمُنْكَرٍ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ، فَيَقُولُونَ: تَرَكُوهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ عَمُّهُ تَنَاوَلُوهُ.

فَمَشَى إِلَيْهِ أَشْرَافُهُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّكَ كَبِيرُنَا وسَيِّدُنَا، فَأَنْصِفْنَا مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَمُرْهُ فَلْيَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا ونَدَعَهُ وإِلَهَهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- فَدَخَلَ البَيْتَ، وبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْرُ مَجْلِس رَجُلٍ، فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٍ إِنْ جَلَسَ الرَّسُولُ -صلى اللَّه عليه وسلم- إِلَى جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ فَجَلَسَ في ذَلِكَ المَجْلِسِ، وَلَمْ يَجِدِ النَّبِيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- مَجْلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ فَجَلَسَ عِنْدَ البَابِ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! هَؤُلَاءِ أَشْرَافُ قَوْمِكَ، قَدِ اجْتَمَعُوا لَكَ، لِيُعْطُوكَ ولِيَأْخُذُوا مِنْكَ، وَقَدْ سَأَلُوكَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِهِمْ، ويَدَعُوكَ وإِلَهَكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ فَقَدْ أَنْصَفُوكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذِهِ، هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كلِمَةً إِنْ أَنْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا العَرَبَ، ودَانَتْ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ؟"، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "أُرِيدُ مِنْهُمْ كلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ"، قَالَ أَبُو طَالِبٍ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ -صلى اللَّه عليه وسلم:

"كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ: نَعَمْ وأَبِيكَ، وعَشْرَ كَلِمَاتٍ، إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ مُرْبِحَةٌ، لَنُعْطِيَنَّكَهَا وَعَشرًا مَعَهَا فمَا هِيَ؟ قَالَ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "تَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وتَخْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ". فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللَّهِ يَا ابْنَ أَخِي مَا رَأَيْتُكَ سَأَلْتَهُمْ شَطَطًا.

أَمَّا زُعَمَاءُ المُشْرِكِينَ فَصفَّقُوا بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: أَتُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَجْعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ أَمْرَكَ لَعَجَبٌ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا هَذَا الرَّجُلُ بِمُعْطِيكُمْ شَيْئًا مِمَّا تُرِيدُونَ، فَانْطَلِقُوا وَامْضُوا عَلَى دِينِ آبَائِكُمْ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُ.

ثُمَّ قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ لَنَشْتُمَنَّكَ، وَإِلَهَكَ الذِي يَأْمُرُكَ بِهَذَا. ثم تفرقوا. وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ. كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ. وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ. أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهًا واحِدًا إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ. وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ. ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ).

وتوفي أبو طالب كافرًا، وبعده بقليل توفيت خديجة رضي الله عنها، وسمّي ذلك العام (عام الحزن).

اشتداد أذى قريش على رسول الله

ودَخَلَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَى النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم- وهِيَ تَبْكِي، فقَالَتْ: هَؤُلاءِ المَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ لوْ قَدْ رَأَوْكَ، فَقَالَ رسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "يَا بُنيَّةُ، ايتِيني بِوَضُوءٍ"، فتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ المَسْجِدِ.

وبَيْنَمَا النَّبِيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- يُصَلِّي في حِجْرِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْط -لَعَنَهُ اللَّهُ- فَوَضَعَ ثَوْبَهُ في عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ -رضي اللَّه عنه- حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ ودَفَعَهُ عَنِ النَبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم-، وَقَالَ: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِيَ اللَّهُ}.

وتَسَلَّطَ عَلَيْهِ عُتَيْبَةُ بنُ أَبِي لَهَبٍ بِالأَذَى، وشَقَّ قَمِيصَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ"، فَخَرَجَ عُتَيْبَةُ فِي قَافِلَةٍ إِلَى الشَّامِ، فنَزَلَ مَنْزِلاً فجَاءَ الأَسَدُ وهَجَمَ عَلَيْهِ، فَقتَلَهُ.

وجَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ، وهُوَ جَالِسٌ حَزِينًا قَدْ خُضِبَ بالدِّمَاءَ، ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ؟، فَقَالَ لَهُ: "فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ وفَعَلُوا"، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيَكَ آيَةً قَالَ: "نَعَمْ". فنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الوَادِي، فَقَالَ: ادْعُ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِي، حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَرْجِعْ، فَأَمَرَهَا فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "حَسْبِي".

وكَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وأَبُو جَهْلٍ وأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، وهُوَ عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، ورَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ. وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ. ثُمَّ سَمَّى -صلى اللَّه عليه وسلم-: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بنِ

رَبِيعَةَ، وشَيْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، والوَلِيدِ بنِ عُتْبَةَ، وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ".

وقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَعَنَهُ اللَّهُ: واللَّاتِ وَالعُزَّى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَن عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فَأتى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ ويَتَّقِي بَيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَالَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا، وأَجْنِحَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا". فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى..) الآيات.

خروجه عليه الصلاة والسلام إلى الطائف

وفي شوال سنة (٣ ق هـ) خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، ماشيًا على قدميه جيئة وذهابًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها، بل رماه أهل الطائف بالحجارة حتى أدموه، وخرج حزينًا راجعًا، حتى إذا كان بموضع اسمه نخلة، قام في الليل يصلي، فمر به نفر من الجن، فاستمعوا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من صلاته، ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

العودة لمكة وبيعة العقبة الأولى

ورجع الرَّسُولُ -صلى اللَّه عليه وسلم- وصَارَ إِلَى حِرَاءٍ، ثمَّ دَخَلَ مَكَّةَ فِي جِوَارِ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ بعدما رفض الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو إجارته.

وكان عليه الصلاة والسلام يعرض نفسه عَلَى القبائل، فلقي في الموسم رهطًا من الخزرج ستة عند العقبة التي بمنى وهي التي تنسب إليها جمرة العقبة. فقال: "ألا تجلسون أكلمكم؟ ". فعرض عليهم الإسلام، فأسلموا، وكانت اليهود تهددهم بخروج نبي يتبعونه ويقاتلونهم معه، فسبقوهم للإيمان. فلما كان العام المقبل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً منهم خمسة من الستة السابقين، فبايعوه في العقبة بمنى في أيام التشريق في الحج عام (٢ ق هـ). وفي شوال من نفس العام عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة الصديقة رضي الله عنها وهي بنت ست سنين.

انشقاق القمر

وسأل أهل مكة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يريهم آية؛ فأراهم انشقاق القمر بمكة فلقتين، حتى رأوا حراء بينهما، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فزعموا أنه سحرهم، وتواصوا بانتظار قدوم القوافل المسافرة في الآفاق ليسألوهم، فلما جاؤوهم وأخبروهم أنهم شاهدوا القمر أيضًا وهو ينشق؛ أعرضوا ولم يسلموا، وقالوا: سحر مستمر.

رحلة الإسراء والمعراج (١ ق هـ)

وفُرِجَ سقفُ بيته عليه الصلاة والسلام بمكة ليلة أسري به من مسجد الكعبة، فنزل جبريل - عليه السلام - ففرج صدره ثم غسله بماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيمانًا وعلمًا فأفرغها في صدره، ثم أطبقه. ثم أتي بالبراق مسرجًا، ملجمًا، فركبه، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فصلى فيه ركعتين، وحانت الصلاة فصلى بجماعة من الأنبياء إمامًا، ثم أخذ

جبريل بيده، فعرج به إلى السماء، ورأى فيها من المشاهد والتقى ببعض الأنبياء، وفرضت عليه الصلاة، ثم عاد لمكة في نفس الليلة.

وقال - صلى الله عليه وسلم -: لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ، فَقَعَدْتُ فِي الحِجْرِ مُعْتَزِلاً حَزِينًا، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَعَمْ" قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: "إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ" قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ " قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَلَمْ يُرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَعَمْ". فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ " قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ

يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى سألتني قريش عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط. فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَنَعَتُّهُ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْه مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ"، فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ.

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ لَهُمْ: "آيَةُ ذَلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانِ كذَا وَكَذَا، فَأَنْفَرَهُمْ حِسُّ الدَّابَّةِ -أَي الْبُرَاقِ- فَنَدَّ لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَلْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ قَدْ غَطَّوْا عَلَيْهَ بِشَيءٍ، فكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ مَا فِيهِ، ثُمَّ غَطَّيْتُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ، وَعَلَى عِيرِهِمْ جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَيْهِ غَرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ، وَالأُخْرَى بَرْقَاءُ"، فلما قدموا مكة سألتهم قريش عن ذلك وعلموا صدقه، لكنهم استكبروا على تكذيبهم وكفرهم.

وصدّقه أبو بكر، فَقَالَ رَسُول اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لِأَبِي بَكْرٍ: "وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقُ". وجَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَبَيَّنَ لَهُ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ، وَأَوْقَاتَهَا، وفُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ.

بيعة العقبة الثانية قبيل الهجرة

وكانت بيعة العقبة الثانية بمنى في الموسم التالي من الحج سنة (١ ق هـ)، حيث التقى النبي صلى الله عليه وسلم فيها بسبعين رجلاً من الأنصار بايعوه على السمع والطاعة والنصرة.

اتفاق مشركي قريش على قتل النبي

ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تجهزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج بالمدينة؛ أصابتهم الكآبة والحزن، وساورهم القلق والهم، فاجتمع طواغيت مكة في دار الندوة في شهر صفر بعد شهرين ونصف تقريبًا من بيعة العقبة، وقرروا رأي أبي جهل أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بأن يؤخذ

شاب من كل قبيلة يعطى سيفاً، ويضربوه جميعًا ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل، فيرضى أهله بالدية.

الهجرة إلى المدينة

وأذن الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بالهجرة، وصحبه أبو بكر رضي الله عنه، ولجؤوا إلى غار حراء ثلاث ليال، وَقد اسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ عبدَالله بن أريقط الديلي ليكون دليلاً لهم بالطريق وكان خرّيتًا، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، فَأَتَاهُمَا بِرَاحِلَتَيْهِمَا صَبِيحَةَ لَيَالٍ ثَلَاثٍ، فَارْتَحَلَا وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مولى أبي بكر، وَالدَّلِيلُ الدِّيلِيُّ، فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ، وَهُوَ طَرِيقُ السَّاحِلِ، وصد الله عنهم لحاق سراقة بن مالك، واستقبلهم أهل المدينة.

الإسلام بعد الهجرة

وكان من أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بنى مسجد قباء والمسجد النبوي، وكانت قبلتهما تجاه بيت المقدس موافقة لقبلة اليهود، وفرح به أهل المدينة فرحًا عظيمًا.

ودعى يهود المدينة للإسلام؛ فآمن به عالمهم عبدالله بن سلام، وأعرض عنه أغلبهم، ودعى للمدينة بالصحة، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وكتب الصحيفة وهي العهد والميثاق بين أهل المدينة من الأنصار -الأوس والخزرج-، والمهاجرين، واليهود، في ولائهم وتعايشهم ونصرتهم وحفظ أمنهم وحقوقهم، فتوافقوا جميعًا عليها، وآمن به سلمان الفارسي رضي الله عنه وحدثه قصة بحثه عن الدين الحق، وفيها شرع الأذان للصلاة.

وفي السنة الثانية من الهجرة صام عليه الصلاة والسلام يوم عاشوراء، ووافق صيامه صيام اليهود فسألهم عن صيامهم، وأخبرهم أنه والمسلمون أولى بموسى عليه السلام منهم، وكان في صيامه وجوابه استئناسٌ واستجلابٌ لهم إلى الإسلام لو قبلوا.

وأعلنت قريش الحرب على المهاجرين والأنصار بالمدينة، وهددتهم، ومنعتهم من المسجد الحرام ما لم يتخلوا عن نصرة محمد صلى الله عليه وسلم، واستولت قريش على أموال المهاجرين ظلمًا وعدوانًا، وشجعت أفعال قريش بعض قبائل العرب على النيل من أهل المدينة، فأُذِن للمسلمين بالقتال، وبدأت غزوات النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة حول المدينة، وتحولت القبلة إلى الكعبة، وفرض صيام رمضان، وزكاة الفطر.

ووقعت غزوة بدر الكبرى في رمضان، ولم يخرج المسلمون لقتال، وإنما خرجوا لنيل قافلة قريش -التي أقبل بها أبو سفيان من الشام- مقابل ما سلبته قريش من أموال المهاجرين، لكنهم لم يدركوا عير قريش، وجمع الله بينهم وبين عدوهم الذي تجهز لقتالهم، فنصر الله نبيه نصرًا عظيمًا على عدوه.

وتوفيت بالمدينة رقية بنت محمد عليه الصلاة والسلام، وخان يهود بني قينقاع عهد الصحيفة، وأعلنوا تأييدهم لأعداء المسلمين؛ فحاصرهم عليه السلام وأراد قتلهم، لكن شفع فيهم حليفهم عبدالله ابن سلول، فافتكفى النبي عليه الصلاة والسلام بإجلائهم عن المدينة، ووكل من يستلم أموالهم.

ثم وقعت غزوة السويق لما قدم أبو سفيان ليلاً إلى يهود المدينة زاعمًا أن يثأر لقتلى بدر، لكنه هرب عائدًا، وتخففوا بإلقاء السويق.

وفي السنة الثالثة من الهجرة كان مقتل كعب بن الأشرف اليهودي بعد خيانته عهد الصحيفة وإعلانه عداوته ومحالفة قريش على المسلمين، وأذيته بشعره لنساء المسلمين.

ووقعت فيها غزوة أحد التي انتصر المسلمون على مشركي قريش في أولها، ثم هزموا لما خالف الرماة أمر نبيهم ونزلوا لجمع الغنائم.

وتلتها غزوة حمراء الأسد، حيث توقف جيش قريش - العائد من أحد- في حمراء الأسد جنوب المدينة، وطمعوا في غزو المدينة؛ فخرج المسلمون لملاقاتهم، إلا أن المشركين تخوفوا وفضلوا الاكتفاء بما أحرزوه في أحد، وانسحبوا إلى مكة.

وفي السنة الرابعة من الهجرة كان يوم الرجيع حيث بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من الصحابة سرية وعينًا، فعلم بهم بنو لحيان وقاتلوهم بين عسفان ومكة وغدروا بهم، وأسروا خبيبًا وباعوه لقريش، فقتل شهيدًا في مكة.

ووقعت حادثة بئر معونة التي قُتِل فيها سبعون من قراء الأنصار غدرًا، لما بعثهم النبي صلى الله عليه وسلم -لمن استمده- مددًا وليُعَلِّموا القرآنَ والسُّنَّة، فغدروا بهم وقتلوهم.

ثم كانت محاولة يهود بني النضير اغتيال النبي عليه الصلاة والسلام برمي صخرة عليه لما أتاهم يستمدهم في دية رجلين، فحاصرهم وأجلاهم من المدينة، ونزلت سورة الحشر.

وفي السنة الخامسة من الهجرة وقعت غزوة دومة الجندل وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدنو إلى أداني الشام، وقيل له أن ذلك مما يفزع قيصر، وذكر له أن بدومة الجندل جمعًا كبيرًا وأنهم يظلمون من مر بهم، وكان لها سوق عظيم وهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فغزاهم وهربوا منه وأقام بها أيامًا.

ثم وقعت غزوة المريسيع (بني المصطلق) من ناحية قديد إلى الساحل، وذلك أن بني المصطلق كانوا يجمعون لحربه، فغزاهم وهزمهم، وكان من بين السبي جويرية بنت سيدهم الحارث، فأسلمت وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي الرجوع منها كانت حادثة الإفك الذي افتراه كبير المنافقين ابن سلول على المطهرة أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، وقد برّأها الله منه وأنزل براءتها قرآنًا يتلى.

ثم وقعت غزوة الخندق (الأحزاب) حيث حرض يهود خيبر قريش وحلفاءها على غزو المدينة، فتحزبوا وخرجوا في جموع كبيرة، وحفر المسلمون الخندق، وحوصرت المدينة، حتى أرسل الله ريحًا شتت جموع المشركين، وردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وأوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام أن قريشًا لا تغزوه بعدها، وأنه هو يغزوها.

ثم غزا المسلمون يهودَ بني قريظة، وحاصروهم لخيانتهم عهد الصحيفة ووقوفهم مع الأحزاب ضد المسلمين، فَقُتِلَتْ مُقَاتِلَتُهم، وسُبِيَتْ ذراريهم، وقسمت أموالهم.

وفي السنة السادسة من الهجرة وقعت غزوة ذِي قَرَد لما لما أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني عبدالله بن غطفان على لقاح النبي صلى الله عليه وسلم في الغابة، فاستاقوها وقتلوا راعيها وهو ابن أبي ذر، وحملوا امرأته. فنودي "يا خيل الله اركبي"، وانطلق الصحابة خلفهم، وبرزت فيها قوة وشجاعة ورماية سلمة بن

الأكوع رضي الله عنه وسرعته على قدميه، واسترد المسلمون المرأة واللقاح، وقتلوا نفرًا من المعتدين الذين فروا وتخففوا من أحمالهم.

وفيها بُعثت سرية الخبط (سِيف البحر) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لرصد عيرٍ لقريش على الساحل، ومحاربة حي من جهينة، وكان فيها قصة الحوت الكبير (العنبر) الذي ألقاه البحر على الشاطئ لما نفد زادهم واشتد بهم الجوع.

وفي هذه السنة خرج عمرو بن العاص ومن وافقه من مكة إلى الحبشة خشية ظهور المسلمين على قريش.

و فيها كانت رؤيا النبي عليه الصلاة والسلام أنه يدخل مكة مع أصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين.

وفيها وقع صلح الحديبية لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمرًا في ذي القعدة هو وأصحابه، ومنعتهم قريش من دخول مكة، وكان التوافق على الصلح والهدنة في الحديبية، ثم نزلت سورة الفتح.

وفيها وقعت قصة أبي بصير رضي الله عنه لما أعاده النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشركين على وفق شروط صلح الحديبية، فهرب منهم وترصد لعير قريش وتجارتها، هو ومن معه ممن فروا من

مكة، وأرهقوا قريشًا حتى طلبت قريش من النبي عليه الصلاة والسلام أن يؤيهم إلى المدينة. وكان في هذا العام قدوم المهاجرات من مكة إلى المدينة.

وفي السنة السابعة من الهجرة أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسائل دعوة الملوك إلى الإسلام، فأرسل إلى ملك الحبشة النجاشي فأسلم، ودعى ملك الغساسنة في الشام، وقيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس ملك القبط في مصر، ودعى هَوْذة الحنفي ملك اليمامة بنجد فما استجابوا.

وفيها غزا النبي صلى الله عليه وسلم اليهود في خيبر حيث كانوا المحرضين والداعمين لقبائل العرب في قتال المسلمين، وانتصر عليهم وأراد أجلاءهم، لكنهم سألوه أن يبقيهم لزراعة أرض خيبر، على أن يعطوه نصف خراجها، فقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم-: "نَتْرُكُكُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا"، فَأَقَرُّوهُ، فَأَقَرَّهُمْ، وفيها كان تسميم اليهود طعام النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر لقتله، وعودة المهاجرين من الحبشة، وفي الرجوع للمدينة كان تحريم المدينة والدعاء لأهلها بالبركة.

ثم كانت غزوة ذات الرقاع جهة نجد، وشُرعت فيها صلاة الخوف، وأُرسلت السرايا إلى عَجُز وفدك والميفعة وغطفان والغابة، الذين قاتلوا المسلمين أو أعدوا وتجهزوا لقتالهم، وكان في ذي القعدة منها عمرة القضاء.

وفي السنة الثامنة من الهجرة كانت وفاة زينب بنت محمد عليه الصلاة والسلام، وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وإرسال السرايا إلى بني الملوح، وقضاعة، وهوازن، الذين قاتلوا المسلمين أو أعدوا وتجهزوا لقتالهم.

وكانت فيها غزوة مؤتة التي قاتل فيها ثلاثةُ آلاف من المسلمين مائةَ ألف من الروم، واستشهد فيها قادة المسلمين الثلاثة، ثم تولى خالد بن الوليد القيادة وأثخن كثيرًا في قتل الروم، ثم انسحب الجيشان بعد مقتلة كبيرة في الروم.

وفيها كانت غزوة ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، حيث إنّ جمعًا من قضاعة تجمعوا وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فقدم إليهم وانتصر عليهم.

وكانت فيها غزوة فتح مكة لما نقضت قريش شروط صلح الحديبية وقاتلت خزاعة في الحرم وهي من حلفاء المسلمين، ففتح الله مكة، ونصر نبيه، وهدمت الأصنام.

ووقعت بعدها غزوة حنين، وابتلى الله المسلمين في أولها لما غرتهم كثرتهم ثم من عليهم بالنصر، وتتبعوا الفارين في أوطاس ونخلة وثقيف، وقسمت غنائم حنين في الجعرانة.

وأحرم النبي عليه الصلاة والسلام بالعمرة من الجعرانة، وأرسل رسالة إلى ملك البحرين (الأحساء)، وإلى ملك عُمان؛ فأسلما.

وفي السنة التاسعة من الهجرة (عام الوفود) كانت وفاة النجاشي أصحمة وصلاة الغائب عليه بالمدينة، وفيها خرج النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وسببها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- بَلَغَهُ أَنَّ هِرَقْلَ مَلِكَ الرُّومِ جَمَعَ جُمُوعًا كَثِيرَةً مِنَ الرُّومِ وَالْغَسَاسِنَةِ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ الْمُوَالِيَةِ لَهُ، فَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- بِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، ولِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ لِقُرْبِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ولم يلق حربًا

من الأعداء، فرجع إلى المدينة منتصرًا بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة.

وكان عليه الصلاة والسلام قد مرَّ -في طريق ذهابه إلى تبوك- بمساكن ثمود في الحِجْر، واستقى الناس من آبارها، فنهاهم عن الشرب من تلك الآبار، وأمرهم بإراقة ما جمعوه من مياه تلك الآبار، وإلقاء الطعام الذي صنعوه من تلك المياه، وأن يكفئوا القدور، ويعلفوا العجين الإبل، ودلهم على بئر الناقة ليستقوا منها، ونهى عن دخول مساكن أولئك المعذَّبين إلا للبكاء والعبرة، وتقنّع عليه الصلاة والسلام، وأسرع السير منها.

وأرسل خالدَ بن الوليد في سرية إلى دومة الجندل فأسر ملكهم أكيدر، وقدم به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ، وكذلك صَالحَ أَهْلَ أَيْلَةَ ويَهُودُ جَرْبَاءَ على الْجِزيةِ، وروي أن رَسُولَ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- بَعَثَ فيها دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ -صلى اللَّه عليه وسلم- بِرِسَالَةٍ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ.

وفي طريق عودته من تبوك حاول المنافقون قتل النبي صلى الله عليه وسلم بمضايقته في طريقه بالعقبة ليسقطوه منها، لكن الله حفظه وأعاده سالمًا للمدينة، ووقعت قصة الثلاثة الذين

خُلِّفُوا، وتوفيت أم كلثوم بنت محمد عليه الصلاة والسلام، وهلك كبير المنافقين ابن سلول.

وقدمت الوفود للمدينة، ومنهم نصارى نجران ولم يسلموا، ورضوا بالجزية، وحج أبو بكر بالناس، وأعلن البراءة من المشركين وألا يطوف بعد اليوم بالبيت مشرك.

وفي السنة العاشرة من الهجرة كانت وفاة إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام، وكسفت الشمس فصلى النبي صلى الله عليه وسلام صلاة الكسوف وخطب خطبة عظيمة.

وكان في ذلك العام حج النبي صلى الله عليه وسلم (حجة الوداع)، واكتمال إبلاغ الدين.

وفي السنة الحادية عشرة من الهجرة مرض النبي صلى الله عليه وسلم، وعاوده أثر سم خيبر، وأنفق ما عنده من مال، وخلا بعثمان وأوصاه وضرب منكبه وهو يوصيه، وَهَمَّ أَنْ يَكتُبَ كِتَابًا، وأوصى بالأنصار خيرًا، وبيّن أن أسامة بن زيد أهل للإمارة على الجيش الذي جهزه، وأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ -رضي اللَّه عنه- أَنْ يَؤُمَّ النَّاسَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَوْصَى بِإِخْرَاجُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،

وَحَذَّرَ مِنِ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ وَثَنًا يُعْبَدُ، وأوصى بقوله: "الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ".

وتوفي عليه الصلاة والسلام، ودفن في حجرة عائشة رضي الله عنها، وصلى عليه المسلمون، وما ترك خيرًا إلا دل أمته عليه، ولا شرًا إلا حذرهم منه، صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا، وجزاه خير ما جزى نبيًا عن أمته.

من جوامع ما أخبر به النبي أصحابه

وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد قرأ القرآن على أصحابه، وعلّمهم أحكامه، وأمرهم بتعلمه، والعمل به، ونهاهم عن هجرانه واتخاذه مزامير، وأخبرهم أنه أوتي القرآن ومثله معه -وهي سنته-، وأمرهم أن يتمسكوا بهما معًا، وأخبرهم أنهم لن يضلوا ماداموا متمسكين بالقرآن والسُّنة.

وأخبرهم عن عظمة الله جل وعلا وعن أسمائه وصفاته، وأنّ اللهَ حرّم الظلم على نفسه، وأنه لا يحب الظالمين.

وأخبرهم عن عظيم خلق الله، وأن الله كتب مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض، وأنه خلق الملائكة مفطورين على الطاعة، وخلق الجن والإنس لعبادته، وسخر لعباده ما في السموات وما في الأرض، وخلق الموت والحياة ليبتلي عباده في طاعته.

وأخبر عن فطرة الإنسان، وأصل خلقه، وأحوال النطفة في الرحم، ونفخ الروح في الجنين، وكتابة نوعه؛ ذكر أو أنثى، وعمره، وما يلقاه، ورزقه، وأجله، وسعادته أو شقاوته، وقرينيه من الجن والملائكة الذيْنِ يوكلان به.

وحذّر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه من الشرك والرياء والتطيّر والسحر والكهانة والكبائر واتباع الأهواء وخطوات الشيطان وسائر المعاصي، وأمرهم بالتوبة.

وعلمهم أن شريعة الإسلام ناسخة لما قبلها، وأن القرآن ناسخ لما قبله من الكتب، وأن الله لا يقبل من أهل الكتاب وغيرهم إلا أن يتبعوه ويؤمنوا به.

وأن النجاة ودخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله، وأن العمل الصالح واتباع الهدى سبب لاستجلاب رحمة الله، وعلمهم

أركان الإسلام، وبين لهم التوحيد، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج والعمرة.

وعلمهم أركان الإيمان، بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره. وأن الإيمان تصديق بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وأنه عبادة وأخلاق.

وأمرهم بالمحافظة على فرائض الله، وألا يتعدوا حدوده، وبيّن لهم أنّ هذا الدين يسر، ونهى عن الغلو، وحثهم على طلب العلم، وسؤال أهل العلم، وأن يتقوا الشبهات.

وأخبرهم أن هذه الأمة ستفترق في دينها، وأن الحق مع من تمسك بسنته وهدي أصحابه، وأن لكل نبيّ حواريّون، وسيَخْلُفُهُم مُبَدِّلون يتبعون سَنن اليهود والنصارى، وأن الصابر على دينه في آخر الزمان؛ كالقابض على الجمر، وله أجر خمسين من الصحابة.

وأن الإسلام دين محفوظ بعلماء يرثون العلم، وبمجدِّدِين على رأس كل مائة سنة، وأمر بالتَّمَسُّكِ بالسُّنَّة والجَمَاعَة، وحذّرَ من الابتداع في الدين، ومن التفرق.

وأمر بطاعة من ولي أمر المسلمين في غير معصية الله، والصبر على جور الولاة وظلمهم، وكره ذلك منهم، وعدم تأييدهم فيه، ونهى عن الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة ولم يظهروا كفرًا بواحًا، وأمر بالنصيحة وقول كلمة الحق، والأمر بالمعروف، وإنكار المنكر وعدم المشاركة فيه.

وبيّن أهمية صلاح القلب وإخلاص النيّة لله، وأخبر عن عدل الله ورحمته ومضاعفته الحسنات، ومغفرته السيئات، وغناه عن خلقه، وأن الجنة حفت بالمكاره، والنار بالشهوات، وأن الأعمال بالخواتيم، وأنه سيكون حساب دقيق على الأعمال يوم القيامة، ويُقتص لحقوق الخلق بعضهم من بعض يوم القيامة.

وعلّمهم أن الإيمان بالقضاء والقدر يكون مع السعي والأخذ بالأسباب، وحثهم على الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

وحثهم على الزينة المباحة بقدرها، وأمرهم بحفظ الدين والنفس والعقل والعرض والنسل والمال، وحثهم على الزواج وحفظ الفروج، وتكوين الأسر الصالحة، ورعايتها والحفاظ عليها، وأمرهم جميعًا بالعفة والحياء وغض البصر، وأمر النساء بالستر والحجاب،

وأمر بإقامة الحدود على من استحقها، وحذر من خطر النفاق والفواحش وسوء الأخلاق.

وبيّن لهم أن الحسنات يذهبن السيئات، ودلهم على أبواب الخير والصدقات، وفضائل ذكر الله، وعلمهم الآداب والأخلاق، وحسن المأكل والمشرب والملبس، وحثهم على التداوي بالمباحات، وحفظ الصحة، والاستشفاء بالقرآن والرقى، وبيّن لهم أسباب إجابة الدعاء ومنعه.

وأخبر بالفتن التي ستقع من بعده، وأمر بدعوة الكفار للإسلام، وقتال الطائفة المرتدة التاركة للصلاة أو الزكاة، وأخبر بظهور الخوارج والمعتدين وأمر بقتالهم.

وأخبر بتداعي الأمم الكافرة على المسلمين متى رضوا بالدنيا والرفاهية وتبايعوا بالعِينة وتركوا الجهاد، وأنه ستبقى طائفة من أمته منصورة على الحق والجهاد إلى قيام الساعة، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم.

وكان مما قاله عليه الصلاة والسلام: إِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، جُعِلَ

عَذَابُهَا بِأَيْدِيهَا فِي دُنْيَاهَا، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا: الْفِتَنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ.

أمور ستقع قبل قيام الساعة

وأخبر عليه الصلاة والسلام بأمور كثيرة وأشراط وعلامات ستقع قبل قيام الساعة، منها: أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ، مِنْهُمْ صَاحِبُ الْيَمَامَةِ وَمِنْهُمْ صَاحِبُ صَنْعَاءَ -الْعَنْسِيُّ- وَمِنْهُمْ صَاحِبُ حِمْيَرَ، وَمِنْهُمُ الدَّجَّالُ، وَهُوَ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً.

وأَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ وَيَنْقُصَ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرَ الْكَذِبُ، وَتَتَقَارَبَ الْأَسْوَاقُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْقَتْلُ، لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ. وَإِذَا ظَهَرَتْ الرَّغْبَةُ وَسُفِكَ الدَّمُ، وَظَهَرَتِ الزِّينَةُ، وَشَرُفَ الْبُنْيَانُ وَاخْتَلَفَ الْإِخْوَانُ، وَحُرِّقَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ!

وتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى، ويَكُونُ قَوْمٌ يَجْلِسُونَ فِي الْمَسَاجِدِ حِلَقًا حِلَقًا، يَكُونُ حَدِيثُهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ، إِمَامُهُمُ الدُّنْيَا، فلَا تُجَالِسُوهُمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ للهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ.

وإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِالْمَسْجِدِ لَا يُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَأَنْ تُتَّخَذَ الْمَسَاجِدُ طُرُقًا، ورجال يركبون على سُرُجٍ كَأَشْبَاهِ الرِّحَالِ يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ. وأَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ، حَتَّى لَا تَرَى فِيهَا خَاشِعًا.

وإِذَا ظَهَرَ التَّلَاعُنُ فِي النَّاسِ، وَشَرِبُوا الْخُمُورَ، وَلَبِسُوا الْحَرِيرَ، وَاتَّخَذُوا الْقِيَانَ، وَاكْتَفَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ. وَمِنْهَا أَنْ يَظْهَرَ النِّفَاقُ، وَتُرْفَعَ الْأَمَانَةُ، وَتُقْبَضَ الرَّحْمَةُ، وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ.

وأَنْ يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالْبُخْلُ، وَأَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا ورَبَّتَهَا، وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ، وَتَظْهَرَ التُّحُوتُ، وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ، وَظُهورَ الْقَلَمِ، وتَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ؛ أَنْ لَا يُسَلِّمَ الرَّجُلُ إِلَّا عَلَى مَنْ يَعْرِفُ، وَيُلْقَى بيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا.

ومِنَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ أَنْ يَفْشُوَ مَوْتُ الْفُجْأَةِ، وأَنْ يُمْطَرَ النَّاسُ مَطَرًا عَامًّا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا، وأَنْ تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا، ويَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ. ولَيَأْرِزَنَّ الْإِيمَانُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا.

ومِنْهَا انْتِفَاخُ الْأَهِلَّةِ؛ أَنْ يُرَى الْهِلَالُ لِلَيْلَةٍ، فَيُقَالُ: هُوَ ابْنُ لَيْلَتَيْنِ. وسَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ؛ الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ. وفِي آخِرِ الزَّمَانِ لَا تَكَادُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا.

وَمِنْهَا أَنْ تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ، وَتُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وَشِرَاكُ نَعْلِهِ وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

وأَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ، وأَنْ يَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيَقِلَّ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمُهُنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ. وتَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَتَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ.

وَيَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ، حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، يَخْرُجُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، يَقُولُ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لَا أَرَبَ لِي بِهِ.

وَأَنْ يَبْنِيَ النَّاسُ بُيُوتًا يُوشُونَهَا وَشْيَ الْمَرَاحِيلِ، ويَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ. إِذَا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ.

وَمِنْهَا أَنْ تَفْشُوَ التِّجَارَةُ، وَيَبِيعَ الرَّجُلُ الْبَيْعَ فَيَقُولَ: لَا، حَتَّى أَسْتَأْمِرَ تَاجِرَ بَنِي فُلَانٍ. وتُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ.

وأَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ الصَلَاةُ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلاً أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ، وَمَا أَظْرَفَهُ، وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ.

وفِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا، وزَمَانٌ لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ.

وتَكُونُ مَعَادِنُ يَحْضُرُهَا شِرَارُ النَّاسِ، ويَحْسِرُ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ

وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو، فَمَنْ حَضَرَهُ فلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا. وتَقِيءُ الأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ، فلَا يُنْتَفَعُ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، يَمُرُّ بِهَا الرَّجُلُ فَيَضْرِبُهَا بِرِجْلِهِ وَيَقُولُ: فِي هَذِهِ كَانَ يَقْتَتِلُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَأَصْبَحَتْ الْيَوْمَ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا.

وأَسْرَعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ فَنَاءً قُرَيْشٌ، وَيُوشِكُ أَنْ تَمُرَّ الْمَرْأَةُ بِالنَّعْلِ، فَتَقُولَ: إِنَّ هَذَا نَعْلُ قُرَشِيٍّ. وكَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي حِمْيَرَ، فَنَزَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ، فَجَعَلَهُ فِي قُرَيْشٍ وسَيَعُودُ إِلَيْهِمْ، ويَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ، ويَمْلِكُ رَجُلٌ مِنَ المَوَالِي يُقَالُ لَهُ الْجَهْجَاهُ.

وإِذَا رَأَيْتَ الْعَرَبَ أهل البادية الْعُرَيْب الْعَالَةَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْجِيَاعَ الصُّمَّ الْبُكْمَ رُعَاةَ الشَّاءِ رُعَاةَ الإِبِلِ البُهْم يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنيان، وَكَانُوا مُلُوكَ الْأَرْضِ ورؤوس النَّاسِ.

ومنها أَنْ تُقَاتِلُوا التُّرْكَ، خُوزًا وَكَرْمَانَ مِنْ الْأَعَاجِمِ، صِغَارَ الْأَعْيُنِ كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ حَدَقُ الْجَرَادِ، عِرَاضَ الْوُجُوهِ، حُمْرَ الْوُجُوهِ،

فُطْسَ الْأُنُوفِ، وُجُوهَهُمْ مِثْلُ الْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةُ، يَنْتَعِلُونَ الشَّعَرُ، وَيَلْبَسُونَ الشَّعَرَ، وَيَتَّخِذُونَ الدَّرَقَ، حَتَّى يَرْبُطُوا خُيُولَهُمْ بِالنَّخْلِ، وَهُمْ أَهْلُ الْبَارِزِ. ويَنْزِلُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي بِغَائِطٍ يُسَمُّونَهُ: الْبَصْرَةَ، عِنْدَ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ: دِجْلَةُ، يَكُونُ عَلَيْهِ جِسْرٌ، يَكْثُرُ أَهْلُهَا وَتَكُونُ مِنْ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا كَانَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، جَاءَ بَنُو قَنْطُورَاءَ، عِرَاضُ الْوُجُوهِ، صِغَارُ الْأَعْيُنِ، حَتَّى يَنْزِلُوا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ، فَيَتَفَرَّقُ أَهْلُهَا ثَلَاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ يَأْخُذُونَ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَالْبَرِّيَّةِ وَهَلَكُوا، وَفِرْقَةٌ يَأْخُذُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَكَفَرُوا، وَفِرْقَةٌ يَجْعَلُونَ ذَرَارِيَّهُمْ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ وَيُقَاتِلُونَهُمْ، وَهُمْ الشُّهَدَاءُ.

وسَيَكُونُ شَرَطَةٌ يَغْدُونَ فِي غَضِبِ اللهِ وَيَرُوحُونَ فِي سَخَطِ اللهِ، فِي أَيْدِيهِمْ أَسْيَاطٌ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ. ولَيَأْتِيَنَّ عَلَى مُضَرَ يَوْمٌ لَا تَدَعُ لِلهِ فِي الْأَرْضِ عَبْدًا صَالِحًا إِلَّا فَتَنَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ، حَتَّى يُدْرِكَهَا اللهُ بِجُنُودٍ مِنْ عِبَادِهِ، فَيُذِلَّهَا حَتَّى لَا تَمْنَعَ ذَنَبَ تَلْعَةٍ.

ويَخْرُجُ مِنْ عَدَنِ أَبْيَنَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، يَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، هُمْ خَيْرُ مَنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ.

ويُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لَا يُجْبَى إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قِبَلِ الْعَجَمِ يَمْنَعُونَ ذَاكَ. ويُوشِكُ أَهْلُ الشَّامِ أَنْ لَا يُجْبَى إِلَيْهِمْ دِينَارٌ

وَلَا مُدْيٌ، مِنْ قِبَلِ الرُّومِ يَمْنَعُونَ ذَاكَ. وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ. وَأَنْ يُحَاصَرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبْعَدَ مَسَالِحِهِمْ: سَلَاحِ.

ولَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ: الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ –عليه السلام- وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ.

وتتابعُ أحداثُ آخرِ الزمان؛ كعُمرانِ بيت المقدس وخراب المدينة، وظهور مهدي من عِتْرته عليه الصلاة والسلام يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وبمصالحة الروم والغزو معهم ثم غدرهم ووقوع الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى فِي الْغُوطَة وانهزام الروم، وفتح القسطنطينية، وخروج الأعور الدجال يتبعه يهود وشياطين وما يكون من فتنته.

ثم يكون نزول عيسى ابن مريم وقتله الدجال، ويكون انهزام اليهود وقتلهم، وخروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم ومقتلهم، ومن

بعدهم مطر يغسل الأرض ويعيد بَرَكَتَها كعهد آدم، ويعمُّ الإسلام الأرض في زمن المسيح ابن مريم، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام أو السيف، وتنعم الأمة في زمانه نعمة عظيمة، فتنزع العداوات بين البشر، وحتى البهائم، وتنزع السموم، ثم يموت عيسى ابن مريم عليه السلام ويدفن، ويصلي عليه المسلمون.

وتطلع الشمس من مغربها، ويقفل باب التوبة، وتخرج الدابة تكلم الناس وتجلو وجوه المؤمنين، وتسم الكفار والمنافقين على خراطيمهم، وتهبُّ ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين، ويختفي أثر الإسلام ويرفع القرآن.

ويبقى شرار الناس على الأرض، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، يَتَسَافَدُونَ فِي الطَّرِيقِ تَسَافُدَ الْحَمِيرِ، ويستحل الحرم أهله، وتهدم الأحباشُ الكعبةَ، وَيَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وتَضْطَرِبُ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ، وَتَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ، تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوهُمْ، تَقْذَرُهُمْ نَفْسُ اللهِ، وتخرج نار من اليمن تَحْشُرُهُمْ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ إلى الشام.

وينفخ في الصور نفخة الصعق، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

وتكون القبور أول منازل الآخرة، وتكون الأرواح فيها في حياة برزخية، ينعم فيها المؤمنون، ويشقى الكافرون.

أحداث يوم القيامة

ثم ينزل ماء الحياة يوم القيامة، فتنمو به الأجساد، ويُرَكَّبُ الجسدُ من عَظْمِ عَجْبِ الذَّنَبِ، وينفخ في الصور نفخة البعث؛ فتعود الأرواح إلى أجسادها، ويُبعث الناس من قبورهم، وتدنو الشمس، ويعرق الناس، وتكون أهوال يوم القيامة وقدره خمسون ألف سنة، تُبَدَّلُ فيه الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، فتنشق السماء وتصير كالوردة وكالدهان، وواهية وكالمهل، وتزال من مكانها، وتصير أبوابًا وطرقًا للملائكة.

وتنتثر الكواكب، وتطمس النجوم ويخسف القمر، ويجمع مع الشمس، ويصبح الناس كالفراش المبثوث، وكالجراد المنتشر، وتبرق الأبصار من الهول وتشخص، فلا تطرف من الخوف والفزع،

وتُترك النوق الحوامل وتُهمَل، ويُتركُ كل نفيس، وتجمع البهائم ليقتص لبعضها من بعض، وتُلَفُّ الشمس، ويذهب ضوؤها، وتتناثر النجوم ويطمس نورها، وترجُّ الأرض وتدك وتزلزل، وتخرج ما في بطنها من الأموات والكنوز، وتدك الجبال وتنسف وتسير عن وجه الأرض، فتكون هباءً منبثًا، كالرمل وكالصوف المنفوش المتطاير، حتى تستوي الأرض كالبساط، وتوقد البحار وتسجّر وتفجّر فتكون نارًا.

ويشتد الزحام فليس للإنسان إلا موضع قدميه، وكل أحد يُبعث على ما مات عليه، ويقوم آكل الربا من قبره كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، ويؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ويشتد الحرّ والخوف والفزع.

ويكون أناس في ظل العرش، وأناس تظلل عليهم قراءتهم لسوتي البقرة وآل عمران، والمجرمون يؤوون إلى ظل النار في أرض الموقف، ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ، لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ.

وتتطاير الصحف، والناس ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي، وتشرق الأرض بنور

ربها حين يأتي الرحمن لفصل القضاء بين الخلق، وتنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، وينتظرون فصل القضاء، وتخفف مدته على المؤمنين، ويظلل عليهم، ويردون حوض النبي عليه الصلاة والسلام، ويعطى المقام المحمود بالشفاعة في تخليص الناس من كرب المحشر إلى فصل القضاء.

ويؤمر آدم بإخراج بعث النار من ذريته، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين في النار، وواحد في الجنة، وتشهد أمة محمد للأنبياء بالبلاغ، وتعرض أعمال المؤمنين عليهم، ويسترهم ربهم ويغفر لهم، ويسد نقص الفرائض من النوافل، ويكون الحساب والسؤال عن النعيم، ومناقشة المنافقين والمرائين، وشهادة الجسد على صاحبه.

وتختلف أحوال الناس بحسب أعمالهم، كصاحب البطاقة، والمتجاوز عن المعسرين، وحال النائحة ومن خان وغش وخدع وقذف ومنع حق المال أو غل واختلس أو اغتصب من الأرض أو غدر، ومن تكبر أو كتم علمًا أو سأل دون حاجة.

ويكون القصاص بين الخلق، حتى يقضى بين البهائم ثم تكون البهائم ترابًا، ويكون القضاء بين الخصوم، وتتباين أحوال

العصاة، وتوزن الأعمال، ويقررون بأعمالهم وجزائهم وأنهم لم يُظلَموا شيئًا.

ويؤتى بجهنم كأنها سراب، وكل أمة تتبع ما كانت تعبد، ويتساقط الكفار خلف شياطينهم ومعبوداتهم في النار التي كانوا يوعدون ويخوفون بها، وتتحقق أحوال أهلها وحسرتهم واستغاثتهم في دركاتها، لا يموتون فيها فيرتاحون من العذاب، ولا يحيون فيها حياة كريمة.

وتبقى أمة التوحيد يقودهم ربهم إلى الجنة، ويعطى المؤمنون نورهم، ثم يظلم على المنافقين ويطفأ نورهم قبل الصراط، وتبدل الأرض وتطوى السماوات، وينصب الصراط على جهنم، وتتباين أحوال الناس في المرور على الصراط، ثم يكون موقف القنطرة بعد الصراط، وفيه تهذيب المؤمنين والقصاص بينهم، ونزع الغل من صدورهم.

وتكون شفاعة المؤمنين في إخوانهم، وشفاعة النبي عليه الصلاة والسلام فيمن دخل النار مِن أمته، ومن في قلبهم أدنى مثقال ذرة من إيمان، فيعتقهم ربهم من النار ويخرجون من النار بعد

احتراقهم وموتهم وتفحمهم، ويوضعون في نهر الحياة، فيخرجون خلقًا جديدًا كاللؤلؤ ليدخلوا الجنة.

ويكون محمد عليه الصلاة والسلام أول من يدخل الجنة، ويدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء، ويجد المؤمنون صدق ما وعدهم الله من الفوز العظيم بالجنة وما وصف لهم من نعيمها، وأبوابها، ودرجاتها، وأنهارها، وأشجارها، وهيئة أهل الجنة، ومنازلهم، وغرفهم، وأزواجهم، ويوم الجمعة في الجنة (يوم المزيد)، وما يكون فيه من النعيم والنظر لوجه الله الكريم، ورضاه عن أهل الجنة، وإحلاله الرضا الأبدي عليهم، وتكون قصة آخِرِ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وامتلاء الجنة والنار، وذبح الموت بينهما، ثم يكون الخلود الأبدي.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

المقدمة..... ٣
الله جل وعلا..... ٩
بدء الخلق..... ١١
السماوات والأرض..... ١٢
خلق الملائكة والجن والإنس..... ١٤
النجوم والبروج وحساب الزمان..... ١٤
رحمة الله..... ١٥
خلق آدم ١٥
سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس..... ١٦
خلق حواء وإسكانها الجنة مع آدم ١٦
إغواء الشيطان لآدم وزوجه..... ١٧
توبة آدم وحواء..... ١٧
وجود إبليس وذنوب البشر لحكمة ١٨
هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض..... ١٨
ذرية آدم وتربص الشيطان بهم..... ١٩

وفاة آدم عليه السلام..... ٢٠
الأنبياء والمرسلون بعد آدم..... ٢١
نوح عليه السلام..... ٢١
إرسال هود عليه السلام إلى عاد ٢٢
إرسال صالح عليه السلام إلى ثمود ٢٢
بعثة إبراهيم عليه السلام في العراق..... ٢٣
قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر ٢٤
رجوع إبراهيم من مصر إلى فلسطين..... ٢٤
ولادة إسماعيل من هاجر وغيرة سارة ٢٥
انتقال هاجر وإسماعيل إلى مكة..... ٢٥
قصة زمزم..... ٢٦
مجيء قبيلة جرهم إلى مكة..... ٢٧
إرسال لوط عليه السلام..... ٢٧
إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة..... ٢٨
قصة الذبيح إسماعيل ومناسك الحج..... ٢٨
بشارة إبرهيم بإسحاق عليهما السلام..... ٢٩
إهلاك قوم لوط في قرى سدوم..... ٣٠

إرسال شعيب عليه السلام إلى مدين..... ٣١
من فضائل خليل الله إبراهيم ٣٢
قصة ذي القرنين..... ٣٤
يعقوب (إسرائيل) عليه السلام..... ٣٥
أيوب عليه السلام..... ٣٥
يوسف بن يعقوب عليه السلام ٣٧
مكوث بني إسرائيل في مصر..... ٥٨
إرسال موسى إلى فرعون وقومه ٦٠
بنو إسرائيل بعد موسى..... ٦٤
قصة أصحاب الكهف..... ٦٥
قصة أصحاب السبت ٦٨
قصة طالوت وجالوت..... ٦٩
داود عليه السلام..... ٧٢
سليمان عليه السلام..... ٧٣
يونس عليه السلام..... ٨٢
قتل النبي شِعْيَا بْنُ أَمْصِيَا..... ٨٥
الخراب الأول لبيت المقدس..... ٨٧

قصة بختنصر مع دانيال عليه السلام ٨٨
عودة بني إسرائيل إلى بيت المقدس..... ٨٩
قصة عُزَيْر عليه السلام..... ٩٠
اختلاف بني إسرائيل..... ٩٤
تحريف اليهود التوراة..... ٩٥
امرأة عمران تلد مريم ٩٥
زكريا يكفل مريم..... ٩٦
زكريا يرزق بغلام اسمه يحيى ٩٧
ولادة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ٩٨
نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام..... ١٠١
كفر اليهود بالمسيح ابن مريم عليه السلام ١٠٣
قتل يحيى بن زكريا عليه السلام ١٠٣
رفع المسيح ابن مريم عليه السلام إلى السماء ١٠٤
زعم اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه..... ١٠٥
الخراب الثاني لبيت المقدس ١٠٦
بولس اليهودي يحرف دين النصارى ١٠٦
برنابا ينقض تحريفات بولس ١٠٨

تحريف الإنجيل واختلاف نُسَخه.....١٠٨
تحريف النصارى دينهم وتفرقهم.....١٠٩
تغيير الملك قسطنطين دين النصارى.....١١٠
اضطهاد الآريوسيين الموحدين.....١١٢
قصة سبأ وسد مأرب.....١١٣
قِصَّةُ تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ.....١١٥
قِصَّةُ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ بنجران.....١١٦
تسلط الأحباش النصارى على اليمن.....١١٩
قصة أصحاب الفيل.....١٢١
ولادة رسول اللّٰه محمد ونشأته.....١٢٢
من معجزاته وخصاله وفضائله عليه الصلاة والسلام.١٢٤
الدَّعْوَةُ في مكة.....١٢٩
الهجرة إلى الحبشة ومحاولة منعها.....١٣٨
محاولة قريش مساومة أبي طالب.....١٤١
حصار الشِّعْب.....١٤١
محاولة كبح الإسلام قبيل وفاة أبي طالب.....١٤٢
اشتداد أذى قريش على رسول اللّٰه.....١٤٥

خروجه عليه الصلاة والسلام إلى الطائف ١٤٨
العودة لمكة وبيعة العقبة الأولى ١٤٩
انشقاق القمر ١٥٠
رحلة الإسراء والمعراج (١ ق هـ) ١٥٠
بيعة العقبة الثانية قبيل الهجرة ١٥٣
اتفاق مشركي قريش على قتل النبي ١٥٣
الهجرة إلى المدينة ١٥٤
الإسلام بعد الهجرة ١٥٥
من جوامع ما أخبر به النبي أصحابه ١٦٦
أمور ستقع قبل قيام الساعة ١٧١
أحداث يوم القيامة ١٧٩
فهرس الموضوعات ١٨٤

النسخة الإلكترونية

(قصة الحياة)

و

(مختصر قصة الحياة)

عبر الرمز الإلكتروني: